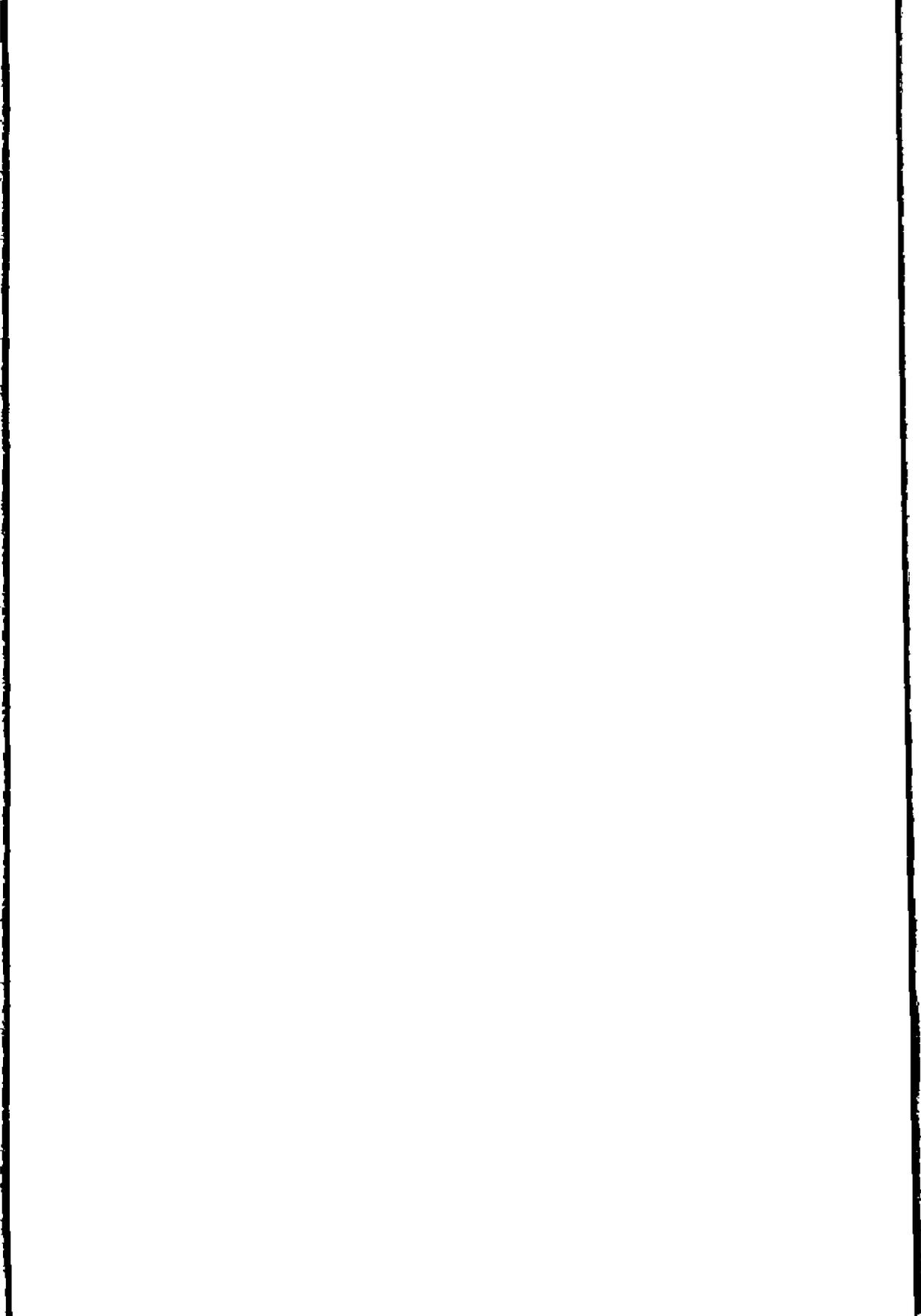


البَابُ الرَّابِعُ

الحياة الروحية في الكوفة

في القرنين الأول والثاني الهجريين



الفصل الأول

البيئة الاجتماعية والدينية للكوفة

بنى سعد بن أبي وقاص الكوفة في عام ١٧ من الهجرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب — على أطلال بابل القديمة لتكون معسكراً للجيش العربي ، بعد فتحه لفارس . واستقرت بها قبائل من اليمن كان جلهم من المرتدة في أيام أبي بكر الصديق ، وبخاصة قبيلة كندة ، وعلى رأسها الأشعث بن قيس ، وليس أدل على بقايا الارتداد في قلب الكوفة ، أن يكشف الصحابي القديم وقارئ رسول الله عبد الله بن مسعود بقايا لعبادة مسيلمة متنى اليمن ، في قلب الكوفة . كان لم يزل في الكوفة عبادة ابن الحارث أحد بني عامر بن حنيفة ، والمشهور بابن النواحة . وكان ابن النواحة رسول مسيلمة الكذاب إلى النبي ﷺ في المدينة ، وأتى ابن النواحة الكوفة وأنشأ حلقة تؤمن بمسيلمة وسرعان ما نما الأمر إلى عبد الله بن مسعود ، فقتله هو وأصحابه (١) . ثم مجموعة من الفرس عرفوا باسم الحمراء ، وكانوا قد انضموا للجيش العربي في القادسية ، ثم عاشوا في الكوفة مع العرب حلفاء لقبيلة عبد القيس الشيبعة .

وكان في الكوفة أو على الأقل في ضواحيها من غير المسلمين بقايا الأديان الفارسية القديمة من مانوية ومزدكية وزرادشتية وماندائية . ثم بقايا هذه الفرقة الهامة في تاريخ الحياة الفكرية الإسلامية ؛ الصابئة . وسيظهر أيضاً في تاريخ حروب علي ، أن النصاري حاربوا في جيشه . كما كانت هناك بقايا اليهود ، ونحن نعلم أن التلمود نشأ في أرض العراق ، نما وتطور في واديها وأصبح التلمود بعد قانون اليهود ... كانت الكوفة ملتقى لهذه الثقافات كلها ، كما كانت البصرة تماماً . ولكن الخلاف بين البصرة والكوفة أن البصرة ، كما يقول الدكتور كامل الشيبى «أغلبية مضرية من عرب الشمال ، أما الكوفة فكانت أغليتها من اليمن ، وهذا يشرح لنا لماذا اتصفت الكوفة بالأصالة العربية ، والبصرة بالاختلاط والهجنة ، فقد كان اليمانيون على جانب من الحضارة أتاح لهم أن يتغلبوا على الآثار الواردة إلى الكوفة من الحضارات الأجنبية وأن يهضموها . أما العنصر العربي الذي نزل البصرة ، فقد كان ضعيف

(١) الدكتور محمد جابر عبد المال : حركات الشيعة المتطرفين ج ١٨٢ .

الحضارة ، فغلبت عليه الثقافة الأجنبية التي قابلته في بيئته الجديدة (١) .

وفي الحق إن في هذا الحكم تعميماً قاسياً . فقد كان لكل من المدينتين أصلتها بشكل خاص . فقد أخرجت لنا البصرة نماذج من الحياة الروحية والعقلية في الإسلام ، لا نجد لها لدى الكوفة ، فمن البصرة خرجت مدرسة العبادة الكبرى ، التي انقلبت إلى الزهد والتصوف ، كما خرجت مدرسة المعتزلة التي لونت الفكر الإسلامي العقلي بكثير من ألوانه . وأخرجت الكوفة الفقه ، كما أخرجت التشيع بمذاهبه المتعددة ... ولسنا هنا في مجال المقارنة العامة بين الاثنتين — وإنما نحن نريد أن نعرض فقط لنشأة الحياة الروحية في الكوفة وأن نقارن بين هذه النشأة ونشأة نفس هذه الحياة في البصرة لئرى هل من الممكن استخلاص نظرية عامة عن الحياة الروحية الأولى في الإسلام ؟ إن تعدد العوامل الحضارية الإقليمية بين مختلف المدن يجعل من المتعذر وضع هذه النظرية . إن هناك عوامل عامة قد تقرب بين مختلف المدارس في مختلف المدن : أولاها : أن المجتمع الإسلامي لم يكن مجتمعاً مغلقاً ، كانت البصرة مفتوحة لمنافذ الكوفة ومسالكتها ، كما كانت الكوفة للبصرة . وكان المفكرون المسلمون سواء أكانوا فقهاء أم عبادا يتقلون بين هذه وتلك . ثانيتهما : أن المجتمع الإسلامي شعر بنفس الغصة تجاه الحوادث القاسية اجتماعية كانت أم سياسية التي هزت ضمائره ، الثالثة : أن المؤثرات الأجنبية التي كانت تحيط بالبصرة ، كانت هي هي نفسها التي تحيط بالكوفة ، ثم بالشام . حقاً : إن اختلاف المزاج العقلي قد ينتج اختلافاً محلياً ، ولكن ليس إلى الحد الذي تختلف فيه النظرية العامة . كان بناء الحضارة الإسلامية بناء واحداً متكاملأ ، شارك فيه المجتمع الإسلامي — كل من ناحيته ببلنة ، والمؤثرات الأجنبية التي أطلت على البصرة ، أطلت هي هي نفسها على الكوفة . ووقفت منها البصرة موقف المعاداة ، كما وقفت الكوفة . حاربت البصرة بالعقل ، وحاربت الكوفة بالفقه . وفي موقف العبادة أو موقف الروح — بكى البصريون ، كما بكى الكوفيون . وتغنت البصرة بالحلب ، وأتى سفیان الثوري ، فاستمع إليه ، ولم يبك ، بل أنس وطرب . وشارك كل منهما في وضع أسس الروح ، وتكامل العمل ... حيث تلقته بغداد فيما بعد : وسنعرض الآن لنشأة هذه الحياة الروحية الأولى في الكوفة .

١- أثر عبد الله بن مسعود في الحياة الروحية للكوفة :

ولعل نشأة هذه الحياة إنما يعود إلى حياتها الأولى — حين أرسل عمر بن الخطاب « عبد الله بن

(١) الدكتور كامل الشبي : الصلة ج ١ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

مسعود» القارئ الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلي قضاءها وبيت مالها ، وليعلم أهلها القرآن ، كما أرسل أبا موسى الأشعري إلى البصرة . وقد تكلمت من قبل عن عبد الله بن مسعود ، والجانب الروحي الخالص فيه . وأود أن أوجه الأنظار إلى أن تلميذى الدكتور عبده الراجحي يقوم ببحث شامل عن الجوانب المتعددة لحياة عبد الله بن مسعود وأنكاره وآرائه وقراءته وعبادته . ونرجو أن يظهر هذا البحث قريباً .

ولقد كان لعبد الله بن مسعود في نشأة الحياة الروحية وتطورها في الكوفة المكان الأول . كان لا بد لقارئ القرآن الأول ، أن ينشئ حلقة قرآنية ، فتكونت طائفة القراء في الكوفة ، كما تكونت طائفة القراء في البصرة . وستنشأ العبادة والزهد في هذه الطائفة ، كما نشأت في نفس هذه الطائفة في البصرة . وسيخرج من هذه الطائفة ، فريق الزهاد من الخوارج . وسينشئون مدرسة زايدة من أكبر مدارس الزهد في الإسلام . ولكن الأثر البالغ لعبد الله بن مسعود في الكوفة هو ما نبهت عليه نحن . وحين أرسله عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة هو وعمار بن ياسر كتب في خطابه إليهم « قد بعثت إليكم عماراً أميراً ، وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من أهل بدر ، فاسمعوا لهما ، واقعدوا بهما . وقد آثرتمكم بعد الله على نفسي » (١) . وقام عبد الله بن مسعود - كما قلت - بدور المعلم الروحي الكبير في الكوفة . وكان يجمع حوله التلاميذ يقرأون عليه القرآن ويقص لنا تلميذه الكبير علقمة قصة قراءته القرآن هو ومجموعة من التابعين عليه (٢) . واختلف عبد الله بن مسعود مع عثمان . وأمره عثمان بأن يترك مهجره الكوفة وأن يعود إلى المدينة . وطلب منه أهل الكوفة أن يبقى وقالوا له : أقم فلا تخرج ، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء نكرهه . فقال : إن له على طاعة ، وإنها ستكون أمور وقتن ، لا أحب أن أكون أول من فتحها (٣) . ثم ذهب إلى المدينة . ومات بها . وحين أتى على إلى الكوفة . أتاه نفر من أصحاب عبد الله بن مسعود وسألهم عنه فدحوه أشد المدح . فأجاب على « وأنا أقول فيه - مثل الذى قالوا وأفضل قرأ القرآن وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، فقيه في الدين عالم في السنة » (٤) . وهذا يدل على ما تركه الرجل من أثر كبير في الكوفة . فلقد أنشأ طائفة القراء ، وقد أجمعت المصادر أيضاً على أنه من كبار المهجدين من أصحاب محمد ، كما كان من الخائفين والبكائين . وبهذا قد زرع البكاء في أعماق الكوفة . وسيطور البكاء بعده ، وسيصل بمصدر

(١) النهي : سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٣٤٧ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٣٣٨ .

(٣) نفس المصدر : ج ١ ص ٣٥٠ .

(٤) نفس المصدر : ج ١ ص ٣٥٢ .

آخر- هو البكاء الشيعي ، على عترة آل البيت ، وسيتشتر تلامذة عبد الله بن مسعود في أعماق الكوفة ، بل نجد أثره في عابد من كبار العابدين فيها- وهو معضد بن يزيد العجلي- وسيناه عبد الله ابن مسعود عن التعبد في الجبانات ، ويعتبر هذا النوع من التعبد بدعة .
وفي إيجاز كان لعبد الله بن مسعود الأثر الكبير في نشأة الحياة الروحية في الكوفة ، ومن العجب أن نرى باحثاً ممتازاً كالدكتور كامل الشيبلي لا يذكره في بحثه عن الزهد في الكوفة .

٢- أثر سلمان الفارسي في تطوير الزهد والتصوف في الكوفة :

ثم نرى شخصية صحابية أخرى ، كان لها أيضاً أثر كبير في حياة الروح في الكوفة وهي شخصية سلمان الفارسي . ونحن نعلم أنه كان لسلمان صورتان ، صورة حقيقية وصورة أسطورية (١) .
أما الصورة الأولى : فهي صورة السائح الفارسي ، ينتقل من مكان إلى مكان باحثاً عن الحقيقة ، متقلداً بين الأديان فن ما نوبته أو مزدكيته الأولى إلى المسيحية ، ثم من المسيحية ، وبعد رحلات متعددة ، يقف هذا الناسك الفارسي على مشارف المدينة ، مميّزاً في محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات النبوة وعلاماتها . وكان عدد من الرهبان النساك الذين قابلهم في رحلاته قد كشفوا له عن هذه العلامات وأخبروه أنها في كتبهم القديمة ، وأن عهد هذه النبوة قد أطل . ولقد ظن سلمان أن في المدينة نهاية حجه الروحي ، وحقاً ما لبث الرجل أن دشّن بكلمات من الرسول «سلمان منا أهل البيت» ولهذا دخل في الإطار الروحي للأسرة النبوية . ثم قبض الرسول ، وبدأت غزوات المسلمين . وكان من الواضح أن يسير سلمان مع الجيش الإسلامي الزاحف إلى فارس . ولا شك أن الرجل كان يشعر أنه ماضٍ في مسابحاته لهداية بني أمته ، وأن يقودها إلى طريق الحقيقة الذي نشده والذي وجدته في الإسلام ، وكان سلمان وحذيفة بن اليمان ممن تخيرا موضع الكوفة ، وفي الكوفة نزل أحلافه من بني عبد القيس ، كما اختط للمحجرة من الفرس معسكراً في جوار بني عبد القيس ، ويرى المؤرخون أن هذا كان من عمل سلمان . على أية حال ترك سلمان تعاليمه الزاهدة ، كما ترك آثار محبته في وجوه بني عبد القيس من بني صوحان- زيد وشيخان وصعصعة . . . ثم استقر سلمان في المدائن - أميراً لها .
وأصبحت المدائن قبلة للمسلمين يأتون سلمان «ابن الإسلام» «صاحب الرسول» و «سابق الفرس» بل أحد آل البيت ينتمون حكته، ويرون مثال زهده. وقد صور هذا العلم وهذه الحكمة على بن أبي طالب حين ذكر عنه بعد ذلك «من لكم بمثل لقمان الحكيم . ذلك امرؤ منا وإيلنا ، أهل البيت ، أدرك العلم

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٨٥ والذهبي : سير أعلام ج ١ ص ٣٦٣ .

الأول والعلم الآخر ، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر ، بحر لا يتزف (١) . بل إن سلمان نفسه يتكلم عن علمه الخاص ويقول : لو حدثتهم بكل ما أعلم لقاتلوا رحم الله قاتل سلمان (٢) ثم نراه يكتب إلى أبي الدرداء حين طلب منه هذا الأخير أن يأتي إليه في بيت المقدس «هلم إلى الأرض المقدسة» فكتب سلمان إليه يقول : «إن الأرض لا تقدر أحدًا ، وإنما يقدر المرء عمله» (٣) . ويقول سلمان إنه تعلم هذا من «علجة» أي مولاة فارسية في المدائن ، فقد كان يلتمس مكاناً طاهراً يصلى فيه . فقالت له هذه الفارسية : التمس قلباً طاهراً ، وصل حيث شئت (٤) . أما معيشته فقد كانت معيشة الزهاد العباد ، وكان يسير في المدائن فتسجد له العجم ، فينكس رأسه ويقول «خشعت لله . خشعت لله» (٥) «وكان يردد» أوصاني خليلي أن لا يكون متاعى من الدنيا إلا كتراد الراكب (٦) » وكان يردد «ثلاث أعجبتني حتى أضحكنتني : مؤمل دنيا ، والموت يطلبه ، وغافل ، وليس بمغفول عنه ، وضاحك ملاء فيه لا يدري : أما خط رب العباد العالمين عنه أم راض عنه . وثلاث أحرزني حتى أبكينني : فراق محمد وحزبه ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي ربي عز وجل ، ولا أدري إلى جنة أوبلى نار» . وقد رأينا هذه النعمة لدى عباد البصرة ، كما سئرها لدى عباد الكوفة . أثر سلمان في أعماق مدرسة الحسن البصري ، وروى عنه الحسن كما قلنا ، كما روى عنه ثابت البناني ، وعامر ابن عبد الله . كما روى عنه عباد الشيعة وزهادهم في الكوفة .

وبعد : فقد ترك سلمان آثاراً كبيرة في عباد المسلمين : سواء أكانوا من السنة أم من الشيعة ، وذلك حين انقسم المسلمون إلى هذين الفريقين من بعده وقد زرع في البصرة ، كما زرع في الكوفة آثار زهده . وكان من أكبر التلاميذ من العباد زيد بن صوحان . وقد ذكرنا من قبل أن زيدا أول من بنى دويرة للعباد في البصرة ، وقد روى الحسن البصري عدداً من الأحاديث مسندة إلى سلمان (٧) . أما في الكوفة فقد كان أثره في تلميذه الكبير صعصعة بن صوحان ، كما التف حوله مجموعة من التابعين من كندة وعبد القيس ، وبنى عجل .

أما الصورة الأخرى صورة «سلمان» الأسطورة . فقد تتبعها ماسينيون في مقاله «سلمان

(١) نفس المصدر : ج ١ ص ١٨٧ والذهبي : سير أعلام النبلاء ص ٣٩٤ .

(٢) الذهبي : سير ج ١ ص ٣٩٥ .

(٣) نفس المصدر : ج ١ ص ٣٩٩ .

(٤) الذهبي : سير ج ١ ص ٤٠١ .

(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٣٩٦ .

(٦) أبو نعيم الحلي ج ١ ص ١٨٦ .

(٧) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ١٩٦ .

الفارسي والبواكير الأولى للحياة الروحية في إيران» ، دخل سلمان الأسطورة في عقائد الشيعة الغلاة ، ويمثل هؤلاء الغلاة من الشيعة نوعاً من التصوف الفلسفي لا يمثل التصوف الإسلامي الحقيقي سواء عند أهل السنة أو الشيعة المقتصدين . ففسر وصف علي بن أبي طالب لعلم سلمان تفسيراً غنوصياً ، لم يعرفه علي ولم يقصده سلمان . ومن الأمثلة على هذا : العلم الأول والعلم الآخر - فمرت على أنها «الماضي + المستقبل أو تنزيل + تأويل أو علم محمد وعلي» وبجر لا ينفذ» تشرح بما يوحى بأن سلمان يهيم على سبعة نقباء . . . أو سلسل يمنح الحكمة ويؤتي البرهان^(١) . بل إن ماسينيون يذهب إلى أن صعصعة بن صوحان وهو أحد الشيعة الأوائل ومن كبار عبادهم وتلميذ أمين لسلمان «قال منذ سنة ٣٣ هـ أمام معاوية بالنظرية الشيعية التي تجعل من إمامة آدم وإمامة علي (العين ، الصامت) شيئاً واحداً فكان حينئذ أحد الأفراد الذين قدروا مقام علي الحقيقي في ذلك الحين ، وتلك أيضاً تدخل في باب أسطورة سلمان . وقد كان صعصعة بن صوحان من عباد المسلمين الكبار ، ومن أتباع علي المخلصين ، ولم يذهب أبداً إلى هذه الصورة الغنوصية التي يستخرجها خيال ماسينيون من النصوص ، ولكن من المهم أن نذكر أن قصة سلمان الأسطورية كانت ذات أثر عميق في نشأة الحياة الروحية لدى عباد المسلمين المعتدلين سواء أكانوا سنة أم شيعة . ثم استخدمت ببراعة نادرة لدى الغنوصيين القائمين من غلاة الشيعة . وأضحى على سلمان فكرة السين ، النموذج الأول للأسباب ، الروابط الخارقة التي يمكن أن تربط بين السماء والأرض ، سبب الشد والتلقين ، الباب الذي يدخل منه النور الشعشعاني والقدرة التي تمنح الوجود . . . أضاف الغلاة من الخطائية والإسماعيلية والنصيرية والدروز وغيرهم كل هذه الصفات وهذه الأسماء إلى سلمان ، ومن غلاة الشيعة دخلت في أعماق التصوف الفلسفي ، والتصوف الإشرافي ، ولكنها لا تصور أبداً حقيقة سلمان ، ولا حقيقة أتباعه الحقيقيين من السنة والشيعة المقتصدة . وقد اعتبروه الأولون صاحب رسول الله ، وأحد أهل البيت ممن أحبوا علياً أشد الحب ، ولكنه عمل لعمر أميراً . وأضحى بجياته وزهده وعلمه على حياة الروح الأولى نغفات رائعة ، واعتبره الآخرون أحد أركان الشيعة الكبار الذين أرسوا حقيقة علي في الإمامة ، ثم كان له علم الأولين والآخرين ، العلم الحقيقي بالأديان السابقة ، ثم العلم الشامل بالإسلام . ولم يشك علماء أهل السنة أنفسهم في أنه كان لسلمان مكان كبير في العلم .

ولكن أهل السنة فهموا من علمه معنى الفقه . أما الشيعة الإمامية ، ثم الاثني عشرية من بعدها فإنها أولت النصوص عن سلمان تأويلاً خاصاً ، وبخاصة في موقفه من المباهلة ، ولكنها لم تذهب أبداً

(١) الدكتور يدري : شخصيات قلقة في الإسلام ص ١٨ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٩ .

إلى المدى الذي ذهب إليه الإسماعيلية ، أو كما صوره الشلمغاني في كتاب المباهلة ، صورة أسطورية تمثل سلمان - في قمة البهاء الإلهي ، عالياً على أصحاب الكساء ، وعلى وفد نجران ، ويستنبح ماسينيون من هذا نتائج خاطئة . . . إن سلمان يمثل بهاء المسيح أو صورة متجددة له في قلب مدينة الرسول (١) .

كان هذا المستشرق الكبير يحمل النصوص مالا يحتمل ، ويصورها كما يريد . ويبتزها لتحقيق « النزعة الروحية الكاثوليكية » التي سيطرت عليه . فأضاع لنا الصورة الحقيقية لأثر سلمان في تطور الحياة الروحية الإسلامية ، وذلك بالرغم من النصوص المتأخرة التي قدمها لنا . كان لسلمان بلا شك صورتان : صورة تاريخية حقيقية دخل بها في سلاسل الصوفية المثلين للإسلام من سنة وشيعة إمامية ، كما كانت له صورة غنوصية لدى غلاة الشيعة - كما قلت ، وقد دخلت هذه الصورة في سلاسل صوفية الحلول ووحدانية الوجود ونحن نعلم أن هذا التصوف الفلسفي إنما كان في دوائر قليلة ، ولكن لم تكن صورة سلمان في سلاسل هؤلاء الصوفية الآخرين ذات صبغة مسيحية ، بقدر ما كانت ذات صبغة غنوصية ، إن ما أود أن أنتهي إليه من هذا العرض الموجز لحياة سلمان وأفكاره أنه كان لحياة هذا الفارسي السائح ، الباحث عن الحقيقة آثار صارخة في الكوفة والمدائن ، وأنه ألقى في حياة الكوفيين والمدائنين بقيم في العبادة ، كما أنه وضع للفرس الذين عاشوا حوله في المدائن والكوفة مثلاً عالياً ، آمن بها عباد السنة على طريقتهم ، كما آمن بها عباد الشيعة أيضاً على طريقتهم .

٣ - أثر حذيفة بن اليمان في الكوفة :

أما الشخصية الهامة الثالثة من الصحابة في حياة الكوفة الروحية ، فهي شخصية حذيفة بن اليمان . وقد سبق أن أشرت إلى حذيفة كواحد من رواد الروح من الصحابة . وذكرت أن العلامة العراقي الممتاز الدكتور كامل الشيبلي قد قدم لنا في كتابه « الصلة بين التصوف والتشيع » عرضاً رائعاً عن حذيفة بن اليمان كركن من أركان الشيعة وأثره - كشيعة - في التصوف (٢) . ولكنني أحاول هنا أن ألقى نظرة موضوعية عن حذيفة بن اليمان وعن أثره في عباد البصرة وعباد الكوفة معاً .

عرف حذيفة بأنه من « نجباء أصحاب محمد ﷺ » ، بل يصفه الذهبي وهو المحدث العتيد بأنه « هو صاحب السر (٣) » وقد أجمع مؤرخو الصحابة على أن رسول الله ﷺ قد ألقى إليه بأسرار الكائنات إلى يوم القيامة (٤) « وسيشير هذا - وكما رأى الدكتور الشيبلي بحق فكرة العلم الباطن ، والعلوم

(١) الدكتور بدوي : شخصيات ص ١٧٧ .

(٢) الدكتور كامل الشيبلي الصلة : ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٤) نفس المصدر : ج ٢ ص ٢٦٣ .

السرية . وأن هذه العلوم قد أودعها الرسول بعض صحابته ، وبالذات الصحابة من عترته النبوية ، (وعلی) علی رأسهم ، ثم نسب إلى حذيفة علم معرفة القلوب . . . وهو يقول نفسه « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني » ، وقد قصد بالشر هنا معنيين : المعنى الأول نفاق القلوب وتغيرها . ولذلك قيل : إن الرسول قد أسر إليه بمعاني النفاق ، وتقلبات القلوب فيه وأسماء المنافقين . والمعنى الثاني : الفتنة : وأنها ستقبل على المسلمين امتحاناً لهم ، وستغير قلوب المسلمين ، وستنكث النفاق في قلوبهم . . . وقد فتح هذا للصوفية من بعده فكرة « رقيق الرياء » وكيف يتخلصون من نفاق القلوب وريائها ، وكيف يجاهدون تحولاتها ومداهنتها . . . وكان حذيفة يحدث في المدائن والكوفة عن الفتنة وإقبالها فيقول « إن للفتنة وقفات وبغفات - فمن استطاع أن يموت في وقفاتنا ، فليفعل » ويكرر ثانية « إن الفتنة تعرض على القلوب ، فأى قلب أشربها ، نكثت فيه نكتة سوداء ، فإن أنكرها ، نكثت فيه نكتة بيضاء . فمن أحب منكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا : فلينظر . فإن كان يرى حراماً ما كان يراه حلالاً ، أو يرى حلالاً ما كان يراه حراماً ، فقد أصابته الفتنة » . فلما قتل عثمان - وأقبل عليه الناس يقولون له : إن الفتنة وقعت ، فحدثنا ما سمعته « فأجاب « أولم يأتكم اليقين . . . كتاب الله عز وجل » . ومات حذيفة قبل أن تستعر أوار الفتنة ، وهو يردد « حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . أليس بعدى ما أعلم . الحمد لله الذي سبق بي الفتنة ، قادتها وعلوجها » وقد أجمعت المصادر أيضاً على أن حذيفة عاش في المدائن وفي الكوفة عيشة الفقراء الزاهدين ، بل دخل المدائن أميراً عليها ، وهو راكب على حمار وهو سادل رجله من جانب ، وفي يده رغيف وفي الأخرى عرق . وخرج إليه أمراء البلدة من العجم والعرب ، فأروه يدخل المدينة ، وهو على ذلك الحال حال ركوب الأنبياء ، كما تقول المصادر (١) .

تلك هي صورة موجزة لحياة حذيفة وتميزه عن غيره من صحابة النبي . فما هي آثاره في مجرى الحياة الروحية في الإسلام بعده ، وبخاصة في البصرة وفي الكوفة وفي المدائن .

أما في البصرة فقد ترك فيها ثلاثة من الآثار الهامة : الأثر الأول - وهو عظاته المتعددة في اتقاء الفتنة ، وتحديثه عنها ، وأنها كائنة ، وأن على القراء اتقائها . وقد فعل هذا عباد البصرة وقراؤها . وقد وصلت إليهم بلا شك أحاديثه المتعددة ، والتي جمعها لنا أبو نعيم وابن الجوزي والذهبي ، والتي تدعو المسلمين إلى تجنب الفتنة قادتها وعلوجها ، خيرها وشرها . أما الأثر الثاني : فهو العلم الباطني ، أو العلم اللدني على وجه الإجمال ، وقد وضع الصوفية فيما بعد : سلسلة من سلاسل التصوف - يظهر فيها حذيفة بن العمان بين الرسول ﷺ والحسن البصري وليس ثمت صلة تاريخية بين حذيفة والحسن .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٧٤ وابن الجوزي : صفة ج ١ ص ٢٥١ والذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

ولكن بالرغم من هذا نسب الصوفية إلى عبد الواحد بن زيد : أنه سأل الحسن البصرى عن علم الباطن : فقال : هو سر من سرى . أجعله في قلب عبدى ، لا يقف عليه أحد من خلتي (١) » والحديث منحول . ولم يأخذ الحسن البصرى عن حذيفة ولم يعاصره . ولكن فيه دلالة على أن اختيار حذيفة كانت متواترة بين عباد البصرة . أما الأثر الثالث : فهو البكاء . وقد عرف عن حذيفة البكاء . وقد ذكر الأعمش أن حذيفة كان يبكى في صلاته وكان يطلب من جالسبه أن لا يعلموا بهذا أحداً (٢) . وانتشر البكاء في البصرة ، كما انتشر في الكوفة .

أما في الكوفة : فقد أثر حذيفة فيها أكبر الآثار ، حذيفة الحقيقي وحذيفة الأسطورة . إن الكوفة فعلاً لم تستمع إليه ، وهو يطلب إليها اتقاء الفتنة . وهو يعلم أنه لا مناص منها . ولكن فكرة العلم الباطنى الذى حمله أو حمله إياه الناس ، فقد أثر في عباد الكوفة من أهل السنة ، كما أثرت أيضاً فكرة « رقيق الرباء » فيهم . وسيردها سفيان الثورى ، وإن كان سينسبها أيضاً إلى شخصية غامضة هي شخصية أبى هاشم الكوفى .

أما إذا انتقلنا إلى حذيفة الأسطورة ، فسرى أثره الكبير أيضاً في عباد الكوفة من الشيعة . فوصلوا بين علمه السرى ، وعلم على ، وأن علمه الخاص هذا جزء من العلم الذى قال على بن أبى طالب فيه « علمنى رسول الله ﷺ سبعين باباً من العلم ، لم يعلم ذلك أحداً غيرى (٣) » فحذيفة إذن موصول بعلى ، علاوة على مؤاخاة الرسول له بعمار ، ركن الشيعة الكبير . وقد تطور عن هذا العلم السرى المنسوب لحذيفة نظرية المعرفة عند الصوفية . يقول الدكتور كامل الشيبى « والواقع أن صلة حذيفة بالتصوف وثيقة ، لأنه السابقة الخطيرة في إمكان اطلاع غير الرسل وغير أوصيائهم - كما عند الشيعة - على أسرار لا يتاح الاطلاع عليها إلا للذوى الاستعداد الروحى الخاص . وقد أدخل المتصوفة هذه العلوم في طريقتهم ، وسرعان ما صنعوا حديثاً رفعوه إلى الله عز وجل وكان من سلسلة سنده حذيفة بن اليمان ، صاحب السر ، فكان بذلك أول شيعى يأخذ منه الصوفية نظرية المعرفة عندهم (٤) » ولا شك أن نظرية المعرفة عند الصوفية قد نشأت عن عوامل أخرى متعددة ، وأن علم حذيفة الخاص يختلف في طبيعته عن طبيعة هذه النظرية عندهم ، ولكن الصوفية قد حاولوا أن ينسبوا نظرياتهم لمجموعة من الصحابة ، كان من أبرزهم حذيفة بن اليمان . ثم تظهر صورة حذيفة

(١) الكلاباذى : التعرف ص ٥٩ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٤٣ وانظر أيضاً السراج : اللمع ص ١٩ .

(٤) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٤٥ .

الأسطورة ، صاحب السر ، في رشيد الهجرى صاحب على ، فبينما كان حذيفة بن اليمان صاحب سر النبي ، وكان حذيفة يعرف النفاق وأهله ، كان رشيد الهجرى صاحب سر على يعرف الشهداء ، ومنى وكيف يموتون . فهذا صاحب علم القلوب ونفاقها ، وذلك صاحب علم البلايا والمنايا وأصحابها (١) .

٤ - على بن أبي طالب - والزهد والتصوف في الكوفة :

ويأتى «على بن أبي طالب» إلى الكوفة ، ربانى الأمة ، وصاحب الأسرار جميعها في نظر الصوفية ، ورأس سلاسلهم ، وصاحب الوصية والعلوم المكنوزة ، ويؤثر في صوفية الكوفة ، السنين منهم والشيعية . كما يؤثر في عباد البصرة ، بل في عباد العالم الإسلامى جميعاً ، ثم ينتقل أثره الكبير إلى الزهاد ، كما ينتقل أثره إلى الصوفية . وقد سبق أن عرضنا نماذج من حياته وفكره . فلا داعى لتكرارها هنا ، وإنما نقول فقط ، إن أثره الأكبر كان في الكوفة حيث عاش الفترة الأخيرة من حياته . أو بمعنى أدق إن أثره الكبير في الحياة الروحية في الإسلام من بعده ، إنما شع من الكوفة ، وانتقل إلى بقية أرجاء العالم الإسلامى . ونعود إلى الكوفة فنقول : إن حياة على فيها وموته أدى إلى نوعين أو نسقين من الحياة الروحية ، نسق سنى ، ونسق شيعى مقتصد ، وليس بين النسقين كبير خلاف ، ونسق شيعى غال .

الفصل الثاني

مدرسة الكوفة السنية

جاء عبد الله بن مسعود - كما قلت - إلى الكوفة ، وزرع بها زرعاً كبيراً ما لبث أن أثمر غرسه وبنته ، أنشأ ابن مسعود طائفة القراء ، وهي تقابل تماماً الحلقة القرآنية الأولى التي أنشأها أبو موسى الأشعري في البصرة وسرى فيها خصائص مدرسة البصرة ، مع اختلافات يسيرة . شغلت البصرة بالتعبد القرآني ، ولم تشغل برواية الحديث ، واشتهرت بالكنايين . بينما ساد الكوفة أيضاً نفس التعمد ، مع عناية بالحديث ، ولعل عناية حلقات الكوفة بالحديث كان لخدمة الفقه الذي اشتهرت به الكوفة ، غير أن ظاهرة البكاء ، تتضح بالكوفة أيضاً ، كما اتضحت بالبصرة . غير أن بكاء البصرة ، كان كما قلت صارخاً ، بكاء عجوز شمطاء تبكي خريف الحياة . أما هنا في الكوفة ، فكانت العروس المجلوة تبكي بكاء الحسرة والندم على شباب الحياة ، على شبابها الذي لم يعمر طويلاً ، على ظلم القدر لها ، ثم سيتطور إلى بكاء عميق على أبناء فاطمة الذين سقطوا بجوارها ، ولقد لفظوا أنفسهم في سبيل القرآن الذي يقرأونه ويتدبرونه . كان بكاء الكوفة هادئاً ، مكظوماً في خفية عن أعين الحكام ، لأنه تمثل في أشخاص ربانيين ، بينما كان بكاء البصرة مسموعاً عالياً منطلقاً ، لا يتمثل في أشخاص ولا يتحدد في ذوات معينة .

وسنحاول أن نعرض لنماذج من هؤلاء العباد الأوائل في الكوفة من مدرسة عبد الله بن مسعود . وقد ذكرنا من قبل هذا الأثر الذي يقرر أن الزهد انتهى إلى ثمانية من التابعين : البعض منهم ، من أهل البصرة ، وقد عرضنا لهم من قبل ، والبعض منهم من أهل الكوفة ، والقلائل منهم ، بل هو واحد فقط من أهل الشام (١) .

١ - مسروق بن عبد الرحمن الهمداني الكوفي : راهب الكوفة :

إن أول صورة لعباد الكوفة من تلامذة عبد الله بن مسعود ، هي صورة مسروق بن عبد الرحمن الهمداني الكوفي (المتوفى عام ٦٣ هـ) . وقد اعتبر مسروق أحد الزهاد الثمانية الأوائل من التابعين . وكان الكوفيون لا يقدمون أحداً عليه من أصحاب عبد الله بن مسعود (٢) . وكان مسروق يمثل العبادة

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٨٧ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٣ .

التقليدية المأثورة عن الصحابة . فعاش عيشة زاهدة ، ويدعو الناس إلى الإخيات في الصلاة ، وأن السجود هو طريق القرب إلى الله . ولذلك شبهوه بالرهبان « كان يقوم للصلاة كأنه راهب » وكان يرخى الستر بينه وبين أهله « ويقبل على صلاتهم ويحلبهم وديناهم » ويدعو إلى التعمق في القرآن وأن منه يستنبط « علم الأولين والآخرين ، علم الدنيا والآخرة » وكره هؤلاء الذين يظهرون العجب بأعمالهم ، دون خشية من الله « كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله » وكان مسروق من أوائل من تنبهوا إلى فكرة « النفس اللوامة » وسيبحثها صوفية أهل السنة من بعده وعنَى أن يغلِق بابَه دون الناس . فكان يردد :
ويكفيك مما أغلق الباب دونه وأرخصي عليه الستر ملح وجرّدق
ثم يأخذ بيد ابن أخ له ، ويرتقي به إلى كناسة الكوفة . ويقول له : « ألا أزيك الدنيا . هذه الدنيا أكلوها فأفئوها ، لبسوها فألبوها ، وركبوها فأنضوها ، سفكوا فيها دماءهم ، واستعملوا فيها محارمهم ، وقطعوا منها أرحامهم » همس بهمس به إلى ابن أخيه ، بعيداً عن الناس ، وهو الذي أرغم على تولي القضاء وأخيراً يقول لسعيد بن جبير « ياسعيد : ما بقى شيء يرغب فيه ، إلا أن نعفر وجوهنا في التراب » ولما احتضر بكى ، فقيل له « ما هذا الجزع ؟ قال : ما لي لا أجزع ، وإنما هي ساعة ، ولا أدري إلى الجنة أم إلى النار (١) » .

٢ - الأسود بن يزيد أو تعذيب الجسد :

ثم نجد صورة ثانية من تلامذة عبد الله بن مسعود وهو الأسود بن يزيد بن قيس بن عبد الله (المتوفى عام ٧٥ هـ) وهو أيضاً من الثانية الذين انتهى إليهم الزهد . وقد دعى أيضاً براهب من الرهبان ، ولعل هذا لأنه اعتنق فكرة « تعذيب الجسد » بل يذكر عنه أنه كان « يجهد نفسه في الصوم والعبادة ، حتى ينحضر جسده ويصفره » . وكان ابن أخيه وهو أحد كبار العباد أيضاً في البصرة علقمة بن قيس يؤنبه على هذا ويقول له « ويحك . لم تعذب هذا الجسد » فيرد الأسود قائلاً « راحة هذا الجسد أريد » أي أنه يعذبه هنا ، لكي يستعذب الراحة الأبدية في الآخرة . وكان يردد أحياناً « إن الأمر جد ، إن الأمر جد » ولذلك فرض على نفسه صيام الأبد ، وذهبت إحدى عينيه من الصوم (٢)

وبعد : فهل هناك صلة بين عبادة الأسود وبين رهبان المسيحية ، وبخاصة أنه يتخذ طريقهم في تعذيب النفس : لا نجد أبداً أن هناك أدنى صلة ، ولا تقودنا النصوص التي بين أيدينا إلى اقتناص أثر مسيحي في عبادته .

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٩٥ - ٦٨ وابن الجوزي : ج ٣ ص ١١ - ١٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٥ وابن الجوزي صفة ج ٣ ص ١١ .

٣- علقمة بن قيس : زين القرآن

وقد اتصلت حياة الأسود بجياة ابن أخيه علقمة بن قيس النخعي (المتوفى عام ٧٢ هـ) . وقد كان علقمة أحب تلامذة عبد الله بن مسعود إليه . وقد شبهوه بالرسول ﷺ من ناحية ، وبعبد الله بن مسعود من ناحية . بل اعتبر من الديانين الذين يقرؤون القرآن ، كما اعتبر «رباني هذه الأمة» وهي جملة أطلقت على علي بن أبي طالب نفسه ، كما أطلق عليه «زين القرآن» . ويذكر المؤرخون أن عبد الله بن مسعود مر على حلقة فيها علقمة والأسود ومسروق وأصحابهم ، فوقف عليهم وقال «بأبي وأمي : العلماء : بروح الله ائتلفتم ، وكتاب الله تلوتم ، ومسجد الله عمرتم ، ورحمة الله انتظرتهم ، أحبكم الله ، وأحب من أحبكم» وقال فيه عبد الله بن مسعود أيضاً «ما أقرأ شيئاً ، ولا أعلم شيئاً ، إلا علقمة يقرؤه أو يعلمه» وكان علقمة ينأى عن الناس حتى عاتبه الناس على هذا «لو جلست فأقرأت القرآن وحدتكم» فأجاب «أكره أن يوطأ عقبي ، وأن يقال هذا علقمة» ويذهب لرعى غنمه . . وكان يترك الناس يشتمونه فلا يجيب . وعلا على نزوات الحياة ، بحيث يقول لامرأته في مرضه الأخير «ترينى واقعدى عند رأسي لعل الله أن يرزقك بعض عوادي» (١) . وقد سئل الشعبي المحدث المشهور عن علقمة أفضل أم الأسود . فقال : علقمة ، «كان الأسود رجلاً حجاجاً ، وكان علقمة بطيئاً وهو يدرك السريع» (٢) .

٤- الربيع بن خيثم : قتل النفس والصدق والصمت .

ثم نأتى إلى صورة رابعة من صور أصحاب عبد الله بن مسعود ، وهو الربيع بن خيثم . وقد اعتبر الربيع بن خيثم أحد الثمانية الذين انتهى إليهم الزهد . وكان من خاصة عبد الله بن مسعود ، بحيث كان ابن مسعود لا يأذن لأحد بالدخول عليه ، إذا أتاه الربيع ، حتى يفرغ كل من صاحبه . وكان ابن مسعود يقول له «لو رأك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك ، وما رأيتك إلا ذكرت المحبتين» وبهذا نرى هذا الاصطلاح القرآني يطلق على عباد الكوفة ، ومن المرجح أنه كان يقابل مصطلح البكائين في البصرة (٣) وقد كان الربيع أيضاً من البكائين . وقد ذكر عنه أنه كان يبكي حتى تبل لحيته دموعه ويقول «أدر كنا أفراماً كنا في جنهم لصوصاً» (٤) وكان يقضى الليالي متهجداً باكياً ،

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٩٨ - ١٠٢ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ، ١٣ ، ١٤ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٠٣ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٠٦ شاين الجوزي : صفة ج ٢ ص ٣٦ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٠٨ ، ١٠٩ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٣٦ .

فتناديه أمه «يا بنى - يا ربيع ألا تنام . فيجيبها : يا أمه - من جن عليه الليل ، وهو يخاف البيات ، حتى له أن لا ينام»

ولما بلغ أشده ، وزاد بكاؤه في الليالي : تسأله أمه مرة ثانية : يا بنى لعلك قتلت قتيلاً ، فقال : نعم يا والدة . قد قتلت قتيلاً . قالت : ومن هذا القتيل يا بنى حتى نتحمل على أهله فيعفون ؟ والله لو يعلمون ما تلقى من البكاء والسهر بعد ، لقد رحموك . يا والدة : هي نفسى (١) « لقد وضع الربيع إذن في تاريخ المحبتين ، ثم الصوفية من بعده - فكرة قتل النفس ، وسينادى بها الحلاج فيما بعد في أسواق بغداد .

ووضع الربيع بن خيثم أيضاً أساس فكرة «الصعق» في الكوفة ، وقد رأيناها مراراً في البصرة من قبل . ولكن الغريب هنا أنه حققها أمام عبد الله بن مسعود . ولم ينكر صاحب رسول الله عليه هذا . إن المصادر تذكر أن عبد الله بن مسعود خرج هو وبمجموعة من أصحابه ، إلى شاطئ الفرات ، فمروا على حداد ، فأخذ عبد الله بن مسعود ينظر حديدة في النار ونظر الربيع إليها وتمايل ليقط . قضى عبد الله وأصحابه سراعاً حتى أتوا على أتون على شاطئ الفرات . فلما رأى عبد الله الأتون والنار تشتعل في جوفه ، قرأ هذه الآية «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً . . . إلى قوله ثوراً» فصعق الربيع ، فاحتلمه أصحاب عبد الله بن مسعود إلى منزله ، وبقى عبد الله بن مسعود يجانبه إلى المغرب حتى أفاق ، ثم رجع إلى أهله (٢) .

ووضع الربيع أيضاً في مجرى الحياة الروحية في الكوفة ، فكرة الصمت وكانت الكوارث السياسية تنزل بالكوفة . كان الربيع بن الخيثم يعلم أوضاع الفتنة . وحين أتى على بن أبى طالب الكوفة «أجابه جل الناس إلى المسير ، إلا أصحاب عبد الله بن مسعود ، وعبيدة السلماني ، والربيع بن خيثم في نحو من أربعائة رجل من القراء . فقالوا «يا أمير المؤمنين . قد شككنا في هذا القتال ، مع معرفتنا فضلك ، ولا غنى بك ولا بالمسلمين عنم يقاتل المشركين ، فولنا بعض هذه الثغور ، لنقاتل عن أهله ، فولاهم ثغر قزوين والرى ، وولى عليهم الربيع بن خيثم وعقد له لواء . وكان أول لواء عقد في الكوفة» (٣) .

فالرجل إذن اعتزل الفتنة - مع محبته لعلى ومعرفته لفضله . وحين عاد الرجل إلى الكوفة ورأى ولاية بنى أمية يتولون أعناق المسلمين لجأ إلى الصمت بحيث كان لا يصدر عنه سوى الكلمة أو الكلمتين

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٢١٤ ، ١١٥ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٣٤ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١١٠ ، وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) أبو حنيفة الدينوري : الأخبار الطوال : ص ١٦٥ .

يقول سفيان الثوري : صحبنا الربيع بن خيثم عشرين سنة ، فما تكلم إلا بكلمة تصعد ، اتخذ الربيع الصمت عبادة بحيث إذا نقل إليه ناقل « إن ابن قاطمة عليها السلام قتل » أطرق الرجل واسترجع ، ثم تلا هذه الآية (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) ثم سئل عما يراه في الأمر ، فقال « ما أقول : إلى الله إياهم ، وعلى الله حسابهم ^(١) » فالرجل إذن قد لجأ إلى الصمت نقمة وكرهية في دنيا تولاها سفهاء بني أمية . وخرج إلى المقابر يتعبد فيها وقد كان أستاذه عبد الله بن مسعود ينهى معضد بن يزيد العجلي عن التعبد في الجبانات . ولعل الربيع فعل هذا بعد وفاة عبد الله بن مسعود . ونزول الكوارث بالكوفة . فكان إذا جن الليل ووجد غفلة الناس . خرج إلى المقابر فقول : يا أهل المقابر كنا وكنتم ^(٢) ... وكان يأنس إلى الوحدة ويقول « أنا بعصافير المسجد آنس مني بأهلي » وحاول جهده أن يخفي عبادته . فكان عمله كله سرّاً . وكان الرجل يأتيه وهو يقرأ . فيسكت ويغطي المصحف بثوبه وكان يحدث عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله « سيأتي على الناس زمان تحمل فيه العزلة ولا يسلم لذي دين دينه . إلا من فربدينه من شاهق إلى شاهق . ومن جحر إلى جحر . كالطير بفراخه والثعلب بأشباله » ^(٣) ... وذهب إلى الأهواز مع صديق له . فنظرت إليه امرأة . فتعرضت له ودعته إلى نفسها . فبكى الشيخ . فقال له صاحبه : ما يبكيك . قال : إنها لم تطمع في شيخين إلا رأت شيوخاً مثلنا ^(٤) فكان يبكي إذن ذنوب الناس . يبكي ذنوب الشيوخ التي دعتهم إلى جسدها من قبل . فقبلوا . فطمعت في شيوخ آخرين . ولم تكن المعاني الكبرى التي وضعها في مجرى التصوف خلال حياته كالإخبات ، وأمانة النفس والصعق والصمت ، هي كل ما ترك هذا العابد الكبير في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية بل إنه عبر عن كثير من معانيها في أحاديثه القليلة التي تركها لنا . فكان يردد أن خير الناس من كان منطقه ذكراً وصمته تفكيراً ، ومسيره تدبيراً ^(٥) . ويأخذ عليه الصمت كل مأخذ ويطلب منه الناس أن « يذكر الناس » فيقول « ما أنا عن نفسي براض ، فأتفرغ من ذمها إلى أن أذم الناس ، إن الناس خافوا الله في ذنوب الناس ، وأمنوه على ذنوبهم ^(٦) » وهذا كلام خطير في التصوف ، ولعلنا نتذكر أن عباد البصرة شغلوا بالوعظ ، ورددهم بعض العباد بل العابدات عن هذا . وكانت حيونة ورابعة تنكران على عبد الواحد بن

(١) أبو نعيم : حلية ج ٣ ص ١١١ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٣٣ .

(٣) نفس المصدر : ج ٣ ص ٣٢ - ٣٥ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١١٦ ، ١١٨ .

(٥) نفس المصدر : ج ٢ ص ١٠٦ .

(٦) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٣٢ وأبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٠٧ .

زيد وصالح الزبي وعظما وتطلبان منها أن يشغلا بنفسيهما . وهذا ما فعله الربيع بن خيثم . ووضع الربيع بن خيثم نفسه في مرتبة الاستسلام المطلق لإرادة الله ، فحين أصابه الفالج طلب منه أصحابه أن يتداوى : فيقول : لقد علمت أن الدواء حق ، ولكن ذكرت عاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً كانت فيهم الأوجاع وكانت لهم الأطباء ، فلا المتداوى بقى ولا أرى المتداوى ، وأهلك التاعث والمنعوت لا حاجة لي فيه (١) « ودعا الربيع للناس حتى لمن سرق دابته (٢) حتى للحجر فقد أصابه حجر في رأسه ، فشجه ، فمسح الدم عن وجهه وقال : اللهم اغفر له ، فإنه لم يتعمدني » وكان يردد لأصحابه « تدرون ما الداء والدواء والشفاء : قالوا لا قال : الداء الذنوب ، والدواء الاستغفار والشفاء أن تتوب ثم لا تعود » بل شغلته التوبة أشد شغل ، وحاول أن ينفذ خلال أحاديثه عنها إلى شغاف القلوب « اتق الله فيما علمت ، وما استوتثر عليك فكله إلى عالمه ؛ لأننا عليكم في العمد أخوف مني عليكم في الخطأ . وما خيرتكم اليوم بخير . ولكنه خير من آخر شر منه . وما تتبعون الحق اتباعه ، وما تفرون من الناس حق فراره ، ولا كل ما أنزل على محمد ﷺ أدركتم ، ولا كل ما تقرأون تدرون ما هو . . . ثم يقول « السرائر . . . السرائر اللاتي تخفين من الناس ، وهن لله تعالى بواد . اتسوا دواءهن ، وما دواؤهن إلا أن تتوب ، ثم لا تعود (٣) » ويعود ثانية إلى طلب الصمت ، ويطلب من أصحابه « أقلوا الكلام إلا بتسع : تسبيح وتكبير ، وتهليل وتحميد ، ومثالك الخير ، وتعوذك من الشر . وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر ، وقراءة القرآن (٤) » وكان يقول : إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك ، وإذا تفكرت ، فاذكر اطلاعه عليك . فإنه يقول تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولاً » .

وكان يطلب منهم محبة الموت ، هذا الذي لم يدوقوا قبله مثله « . . . والغائب إذا طالت غيبته وجبت محبته ، وانتظره أهله ، وأوشك أن يقدم عليهم » فإذا أصبح عليه الصباح قال « أصبحنا مدينين نأكل أرزاقنا . ونتنظر آجالنا (٥) » فلما احتضر ، بكت ابنته : فقال يا بنية : لم تبكين : قولي بشرى أتى الخير « ولم يكن الربيع يخشى الموت إذن ، بل يتطلبه ، ويتنظر مجيئه . وهذا أيضاً خلاف ثان بينه وبين عباد البصرة الذين خشوا الموت أشد الخشية ، خوفاً من عذاب الله . أما في الكوفة ، وقد رأوا عذاب البشر ، عذاب بني أمية لهم ، فانتظروا الموت على عجل ، مرحين به . وكان دموع البصرة

(١) أبو نعيم : حلية ح ٢ ص ١٠٦ ، ١٠٧ وابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٣٢ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٣٢ وأبو نعيم : حلية ح ٢ ص ٢١١ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ح ٢ ص ١٠٨ وابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٣٣ .

(٤) أبو نعيم : حلية ح ٢ ص ١٠٩ وابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٣٣ .

(٥) أبو نعيم : ح ٢ ص ١٩٢ .

قد انهمرت من الباطن ، بينما دموع الكوفة . قد أهرها الخارج ، الحياة المضنية التي عاشوها ، سوط العذاب الذي لقوه في هذه الدنيا ، التقية التي فرضوها على أنفسهم . وكان الربيع عالماً بكل ما حوله ، وما جلس مجلساً منذ تآزر وكان يقول « أخاف أن يظلم رجل فلا أنصره أو يعتدى رجل على رجل ، فأكلف عليه الشهادة ولا أغض البصر ، أوقع الجاهل فلا أحمل عليه ^(١) . لقد كظم الرجل غيظه . واحتمل على نفسه ، إنه جلس بين أصحابه يوماً على باب داره ، فأصابه هذا الحجر الذي شج رأسه وصك وجهه ، فدعا له فقام ودخل الدار قائلاً « لقد وعظت ياربيع » وأغلق الباب ، وما رؤى في مجلسه حتى مات ^(٢) .

وهكذا عاش أمير قزوين القديم ، شيخ القراء ، وأكبر أصحاب عبد الله ، في مقام الذل ، وقد رأى الدنيا تغيرت من حوله ، وحكمها الفتية السفهاء من بني أمية ، يتظاولون على منابر الكوفة ، ويقتلون الناس بغير الحق فعاف الناس جميعاً ، بل كانت تأتيه ابنته تقول « يا ابتاه أتذن لي ألعب » فيمنعها . . . وكان يكنس بيته بنفسه ^(٣) ومات في ولاية عبيد الله بن زياد « هذا الغلام الجبان السفية » كما دعاه معاصره الحسن البصرى في البصرة ، هذا الذي قتل الحسين بن فاطمة ، ولم يستطع الربيع بن خيثم أن يفعل شيئاً سوى أن يسترجع ، ويغلق عليه داره ؛ متمنياً الموت الذي طالما أحبه وانتظره .

وبعد : فإن الكثيرين من الباحثين لم ينتهوا إلى أثر هذا العابد الكبير في تاريخ الحياة الروحية في الكوفة . فقد تتلمذ عليه العدد الكبير من عابدها ، أو أخذوا عنه ، وساروا سيرته . ثم تأثر بسيرته سفيان الثوري وسعيد بن جبير ، وإن كان سعيد سيموت فيما بعد - في يوم مشوم على يد الحجاج ، كما أثر الربيع بن خيثم في الفضيل بن عياض وفي بشر الحافي . ولعل الفضيل قد تتلمذ عليه وقد نتساءل : هل هناك أثر خارجي في أقوال الربيع وفي حياته . كانت المسيحية كما نعلم - حوالى الكوفة ، وأتى عدد من المسيحيين إليها ، كما كان بجوارها أيضاً المندائية والديصانية والرقوتية والمناوية . وعاش في الكوفة عدد من اليهود . إن التأمل الباطني في حياة الرجل وفي أقواله لا يثبت وجود أثر خارجي فيها ، ففكرة الاعتزال والتوحد ، انبثقت عن عوامل الكوفة السياسية والاجتماعية ، ولا يوجد مدخل من مداخل الرهبة المسيحية في اعتزال الربيع ، كما أن فكرة الصعق لم تكن خارجية ، بل انبثقت من أعماق الرجل ، وقد شاهدها عبد الله بن مسعود . ولورأى فيها ظلالات من أثر خارجي ، لأنكرها ، أما

(١) أبو نعيم : حلية ح ٢ ص ١١٦ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٣٦ .

(٣) نفس المصدر : ح ٣ ص ٣٤ .

فكرة قتل النفس ، أى مجاهدتها ومعاناتها ، حتى يتخلص الإنسان من شوائبها فقد استند فيها على النصوص القرآنية « فى النفس اللوامة والنفس المطمئنة » وبعد : فإنى أردد هنا أيضاً أن تشابه الطريقتين لا يدل على تشابكهما ، اللهم إلا إذا وجدنا وثيقة تاريخية قوية ، علاوة على أننا لا نجد فيها بين أيدينا من نصوص أن الرجل قد اتصل برهبان أو وقف على صومعة - كما فعل عباد البصرة .

٥- التوايون من زهاد الكوفة :

وإذا كان عبد الله بن مسعود قد أطلق على الربيع بن خيثم لقب الخبث فإنه أطلق على أبى وائل شقيق بن سلمة الأسدى لقب التائب . . . وكما أطلق على أصحاب عبد الله فيما بعد لقب الخبثين أطلق عليهم لقب التواين وسبذكرهم عون بن عبد الله بن عتبة ويقول « جالسوا التواين ، فإنهم أرق الناس قلوباً » ، والتوايون^(١) هنا من أصحاب عبد الله بن مسعود فكان الكلمة قد أطلقت على مجاميع من الناس فى الكوفة لا على التواين من الشيعة فقط . وقد كان شقيق من البكائين ، بل يكاد يكون أول البكائين الحقيقين من عباد الكوفة ، وقد قيل إنه كان يستمع النوح ويبكى . وكان إبراهيم التيمى (من كبار عباد الكوفة) يذكر فى منازل أبى وائل ، « وكان أبو وائل ينتفض انتفاض الطير » وكان ينشج فى المسجد - « كما تنشج المرأة » وكانت أحداث الكوفة قد ألفت ظلالها على العباد ، فزادوا بكاءً ونحيباً ، وقد ذكر الحجاج يوماً عنده فقال « اللهم أطعم الحجاج من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع » ثم يتدارك خشية من الله - فيقول « إن كان ذلك أحب إليك » وكره القراء وتهافتهم على أبواب الأمراء كما كره ابنه لتولية القضاء^(٢) .

واتخذ عباد الكوفة - كما اتخذ عباد البصرة - التعبد فى الحيوانات سنة لهم ، وكان أول من قام بها فى الكوفة معضد بن يزيد العجلي هو ومجموعة من أصحابه ، وقد ذهب إليهم عبد الله بن مسعود وأمرهم بالعودة إلى بيوتهم . ولكن ما لبث أن لجأ العباد إلى الحيوانات - وعلى رأسهم الربيع بن خيثم - كما ذكرنا .

وكان معضد يطلق أقواله فى التعبد « اللهم أشفى من النوم باليسير » ويتمنى لو كان يعسواً « لولا ثلاث : ظمأً الهاجر ، وطول ليل الشتاء ، ولذاذة التهجذ بكتاب الله عز وجل ، ما باليت أن أكون يعسواً »^(٣) . ويختلف العابد الكوفى عمرو بن عتبة بن فرقد السلمى مع أبيه . يريد الأب من الابن

(١) أبو نعيم : حلية ح ٤ ص ١٠١ - ١٠٦ وابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٥٦ .

(٣) أبو نعيم : حلية ح ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ . وابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٢٢ .

أن يترك عبادته وأن يعينه في عمله ، وسأل أصدقاء الابن أن يعينوه على إقناعه بترك العبادة . . . فيقول معضد « لا تطعمهم واسجد واقترب^(١) » فقال عمرو « يا أبت إنما أنا عبد ، أعمل في فكاك رقبتي ، فدعني » . وكان يذهب مع معضد إلى المقابر ، ويقف على القبور ويقول : « يا أهل القبور ، قد طويت الصحف ، وقد رفعت الأعمال » ثم يبكي ، ويصف بين قدميه حتى الصباح ، ثم يعود إلى المسجد ، فيشهد صلاة الصبح . وقد استشهد الصديقان سوياً في إحدى الغزوات .

وما لبثت الإسرائيليات أن انتشرت لدى عباد الكوفة ، كما انتشرت لدى عباد البصرة . فزرى خيشمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة ، ومن أصحاب عبد الله بن مسعود ، يقول « كان عيسى عليه السلام يلبس الصوف ، وكان يجي عليه السلام بلبس الوبر ، ولم يكن لواحد منها دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى بأويان إليه ، أينما جنبها الليل أويأ » ثم يخلط أحاديث عيسى بالقرآن فيقول « مرت بعيسى بن مريم عليه السلام امرأة فقالت : طوي طوي لبطن حملك ، ولثدي أرضعك فقال عيسى « بل طوي لمن قرأ القرآن ، واتبع ما فيه^(٢) » . ويكثر عبد الله بن أبي الهذيل أيضاً من الإسرائيليات . بل إنه يورد عن موسى أنه قال « يارب خلقت خلقاً وهم عبادك ثم تحرقهم بالنار^(٣) » . وستررد رابعة هذا القول في صورة مماثلة . وكان هذا النوع من الإسرائيليات قد انتشر بين المسلمين ، تؤيد به الطوائف المختلفة منازعها .

ثم ظهرت فكرة تعذيب النفس في الكوفة . يضع زيد بن الحارث العامي (المتوفى سنة ١٢٣ هـ) يده في الماء البارد طيلة الليل حتى جمدت ، وكذلك كان يفعل صديقه طلحة بن عمر بن كعب (توفى عام ١١٢ هـ) وكان سعيد بن جبير يمتنى أن يقابل الله في مسلاخ زيد . وكان الاثنان « لا يتوسدان الفراش » أخلقها السهر وطول القيام^(٤) .

ثم ظهرت طائفة التوايين - وكان من أبرز رجالها « عون بن عبد الله » وكان يدعو إلى الذكر « مجالس الذكر ، شفاء القلوب » و « ذكر الله صقال القلوب » وكان عون بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود يتردد على أم الدرداء ، هو وأصدقاؤه . فيقيمون مجالس الذكر عندها وكان يطلق عليه وعلى أصحابه اسم التوايين ، وقد أثر عنهم أدعية متعددة ، وكانوا أرق الناس قلبياً وكان يقول « قلب التائب بمنزلة الزجاج ، يؤثر فيها جميع ما أصابها ، فالموعظة إلى قلوبهم سريعة ، وهم إلى الرقة أقرب ،

(١) ابن الجوزي : صفة ح ٤ ص ١٥٦ - ١٥٨ .

(٢) أبو نعيم . حلية ج ٤ ص ١٥٦ - ١٥٨ .

(٣) أبو نعيم : حلية ح ٤ ص ١١٧ - ١١٩ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٥٣ ، ٥٥ .

فداووا القلوب بالتوبة ، فلب تائب دعتة توبته إلى الجنة ، حتى أوفدته عليها ، وجالسوا التوايين ، فإن رحمة الله إلى التوايين أقرب « وكان يكثر من البكاء » كان يمدننا وللحيته رش بالدموع (١) ، وكذلك كان يفعل سعيد بن جبير ، كان يبكي حتى عمش (٢) . وكان سعيد بن جبير يرنو بعينه دائماً إلى البصرة ، وكان يرى أنهم أهل العبادة الحقة (٣) . وقد وردت بعض الأخبار عن صلوات سعيد بن جبير بالرهبان وهو يقول : لقيني راهب فقال يا سعيد في الفتنة ، يتين من يعبد الله بمن يعبد الطاغوت (٤) . ولكن ما يلبث راهب أن يدل شرطة الحجاج على مكانه وتراه الشرطة في صلاته فيأخذونه ودعاهم الراهب للمبيت في الدير ، فأبى سعيد أن يدخل بيت مشرك أبداً ، وبني الليل في العراء ، واقترب منه أسد ، فسكن بين يديه ، ونزل الراهب من صومعته وأسلم بين يديه (٥) . وقد قتل سعيد على يد الحجاج في مشهد مثير . أزعج عباد المسلمين جميعاً . . . وقد أعطى مثلاً لشهداء الصوفية من بعده . . . وكان مثاله - كبش إبراهيم . . . الكبش الذي فدى به إسماعيل ارتقى في الجنة . . . وكان عليه عهد أحمر (٦) .

وقد نرى نفس الصورة فيما بعد ، لدى الحلاج . . . وهو يردد :

«تهدى الأضاحي ، وأهدى مهجتي دمي» .

وتكونت طائفة البكائين في الكوفة . «كان أصحابنا البكاؤون أربعة : عبد الله بن سعيد بن أبيجر المتطيب ، ومحمد بن سوقة ، ومطرف بن طريف وضرار بن مرة » وكان ضرار بن مرة قد حفر قبراً في بيته يتعبد فيه (٧) . كما كان يلزم البعض الجبانات يعيشون فيها ، كعطوان بن عمرو التيمي (٧) . وانتشر البكاء في الكوفة ، كما انتشر في البصرة ، وكانوا يجتمعون في خلواتهم ليكون : كقيس بن مسلم الجذلي (توفي عام ١٢٠ هـ) ومحمد بن حجاجدة ومسر بن كدام (توفي عام ١٥٥ هـ) وكان مسر يقول : «أشبهى أن أسمع صوت باكية حزينة» وكان مسر بن كدام يرى الحزينة في اليأس من الناس وينشد :

ألا قد فد الدهر فأضحى حلوه مرا
وقد جربت من أهوى فقد أنكرتهم طرا
فألزم نفسك اليأس من الناس تعش حرا

(١) ابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٥٥ - ٥٨ وأبو نعيم : حلية ح ٤ ص ٢٧٢ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ح ص ٢٧٢ .

(٣) نفس المصدر : ح ٤ ص ٢٧٦ .

(٤) نفس المصدر : ح ٤ ص ٢٨ .

(٥) أبو نعيم : الحلية ح ٤ ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٦) نفس المصدر : ح ٤ ص ٢٨٣ .

(٧) ابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ .

وسرى الجنبيد يتأثر بهذا الحديث فيما بعد : فيعرف التصوف « بأنه اليأس مما في أيدى الخلائق » .
وقد أثر مسعر بن كدام في شيخ زهاد الكوفة سفيان الثوري ، بل تتلمذ الثوري عليه (١) .
وفي الكوفة أيضاً خرج كرز بن وبرة ، يدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر ويضربه الناس حتى يغشى عليه ، وعاش وسكن في جرجان ، حيث تعلم « الاسم الأعظم » طلب من الله أن يعطيه إياه على أن لا يسأل به شيئاً من الدنيا (٢) وقد ظهرت فكرة الاسم الأعظم في البصرة ، كما ستظهر في الكوفة لدى غلاة الشيعة .

وفي مدرسة الكوفة أتى معروف الكرخي ، الصوفي البغدادي المشهور ، واستمع لوعظ ابن السماك الكوفي (المتوفى عام ١٨٣ هـ) . وكان هذا نقطة تحوله إلى الحياة الزاهدة الصوفية كما سرى بعد (٣) .
ويعد : فقد كان لمدرسة عبد الله بن مسعود الأثر الكبير في توجيه الحياة الروحية في الكوفة وبالتالي في العالم الإسلامي كله . اتصلت بشخصية أستاذها الكبير - خادم رسول الله وصاحبه وقارته . « وكان رجلاً حديداً » لم ينحن أبداً لأحداث الحياة الطارئة ولا تطوراتها ، وأراد أن يجعل من مجتمع الكوفة مجتمعاً محمدياً عاشه من قبل في مدينة محمد عليه السلام . رأى تلميذه الربيع بن الحثيم « يصعق » عند رؤية الحديدية المحماة في النار تذكرهم جميعاً بالعذاب الأبدي ، ولم ينكر ، ولكنه بلا شك عجب في أعماق نفسه . ورأى مجموعة من عباد الكوفة يتمدون في الجبانات ، ولم يعرف كما يقول عبده الراجحي في كتابه الرائع عن « عبد الله بن مسعود ومدرسته » هذا في « سنة سيده » فذهب وأعادهم إلى بيوتهم . وبأتية رجل يخبره أن قوماً منهم معضد بن يزيد العجلي وعمرو بن عتبة يجلسون في المسجد بعد المغرب فيهم رجل يقول « كبروا الله كذا وكذا ، سبحوا الله كذا وكذا ، واحمدوا الله كذا وكذا » . فيقول عبد الله بن مسعود « إذا رأيتمهم فعلوا ذلك فأتني فأخبرني بمجلسهم . . . فأتاهم وعليه برنس له ، فجلس ، فلما سمع ما يقولون ، قام فقال : أنا عبد الله بن مسعود ، والله الذي لا إله غيره ، لقد جنتم ببدعة ظلمنا ، ولقد فضلتهم أصحاب محمد ﷺ علماً . فقال معضد : والله ما جئنا ببدعة ظلمنا ولا فضلنا أصحاب محمد علماً . فقال عمرو بن عتبة : يا أبا عبد الله نستغفر الله . قال : عليكم بالطريق فالزموه ، فوالله لئن فعلتم ، لقد سبقتم سبقاً بعيداً ، ولئن أخذتم ميمناً وشمالاً لتضلن ضلالاً بعيداً (٤) » يقول الدكتور عبده الراجحي « لقد كانت أغنية الروح عند عبد الله بن مسعود هي القرآن

(١) نفس المصدر : ح ٣ ص ٧١ .

(٢) نفس المصدر ح ٣ ص ٧٢ ، ٧٥ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ح ٤ ص ٣٨١ .

(٤) قدمت نماذج فقط من العباد في الكوفة ، وهناك أسماء أخرى لأئمة من أهمها : إبراهيم النخعي ، وإبراهيم التيمي ، =

العظيم وحده ، يكبر ويسبح ويحمد به . وكان يرى في القرآن مآدبة الله الأزلية ، أنزلها الله على الأرض ، لتكون عيداً لأولنا وعيداً لآخرنا ولقد تناولها هو في بطحاء مكة وفي بوادي يثرب ، وأراد لأصحابه في الكوفة أن يفعلوا نفس الأمر وعلى نفس الصورة . ولم يعلم أن حياة هؤلاء كانت قد تشعبت وتضخمت ، وأنهم يعانون تجربة ذاتية لم يعانها هو لقد ملأ أرض الكوفة بقرآته ، وغناه الناس ، كل على هواه . ولعله حين عاد إلى المدينة - بلد حبيبه الذي اصطفاه من دون الصحابة - رقيقاً دائماً له ، رأى نفس الأمر ، بل رآه فعلاً حين استمع في جوانب المدينة إلى قراءة غير قراءته . ولعله - طاب نفساً - حين أتاه ملك الموت يدعوه إلى أن يلتق الأجرة ، محمداً وصحبه . وسار تلامذته ورجال مدرسته بروح تعاليمه ، ووصلوا إلى النتائج التي لم يصل إليها . وكانوا الرعيل الأول ، أصحاب الروح في العالم الإسلامي ، وعاشت تصوراتهم في أعماق الزهد ثم التصوف . وسيقدم لنا بحث عبده الراجحي - كما قلت - النواحي المتعددة لحياة عبد الله بن مسعود وآرائه ، وتطور مدرسته .

وفي هذه المدرسة ظهر ثلاثة من كبار العباد ، بل الزهاد وهم : سفيان الثوري ، وداود الطائي ، والفضيل بن عياض ، ويمثل الثلاثة تطور مدرسة عبد الله بن مسعود من دور العبادة إلى دور الزهد أو بمعنى أدق يمثلون أوائل التصوف .

الفصل الثالث

نشأة الزهد

الزهاد الأوائل في الكوفة

كان للكوفة الفضل في وضع مصطلح الزهد - علماً على جماعة تميز عن العباد ، كما تتميز عن القراء ، وتقابل الفقهاء والعلماء والمحدثين . وكانت الكوفة أصيلة حقاً ، صدرت عنها نماذج الحياة الفكرية والروحية الإسلامية كلها ، بينما قفزت البصرة إلى « العبادة » إلى « حياة الروح » « طفرة واحدة ، تعيش في مناهات الغيوب » وتبدع العبادة الصرفة البحتة ، ثم يعقبها الحياة الروحية « ثم نظرية الخلعة والمحبة ، ولكن كل ما أنتجت ، إنما كان في نطاق واحد ، نطاق الغيب فقط ، أما الكوفة ، فقد سارت في طريق العبادة تحت اسم القراء » ثم انبثق عن القراء المحدثون ، والعلماء والفقهاء ، ثم انبثق عنهم أيضاً العباد والزهاد ، والصوفية . ونشأ الزهد ، وتطور ، وتعمق . . . وأخذ يمد بغداد ، كما سئرى فيما بعد .

ولقد نشأت الفكرة الزهدية على يد ثلاثة من كبار العباد ، كما قلنا من قبل وسئرى أى أنموذج من الزهد قد اخطته هؤلاء ، وسئرى أنهم - وتدرجياً - أسلموا الحياة الروحية الإسلامية إلى دائرة التصوف البحت .

١- سفيان الثوري : عالم الأمة وعابدها .

وكان أول هؤلاء الزهاد - هو سفيان الثوري (المتوفى عام ١٦١ هـ) ولقد أجمعت مصادر الفكر الإسلامي جميعاً أن أبا عبد الله سفيان بن سعيد الثوري كان « عالم الأمة وعابدها » (١) ، ويقول عنه أبو نعيم « كان العلم حليفه والزهد أليفه » .

وقد نشأ سفيان الثوري في رحاب الكوفة ، وقد وهبه أهله للحديث ، فكان « محدث » الأمة ثم وصل إلى الأوج في « الفقه » وكان مفتي الكوفة الأكبر ، وكان مذهبه يضارع مذهب أبي حنيفة ، ولكن حياة الزهد التي عاشها سفيان الثوري لم تحقق لمذهبه الذبوع والانتشار ، بينما لم يكن أبو حنيفة وتلاميذته المباشرين زهاداً ، فانتشر المذهب الحنفي ، واندثر المذهب الثوري .

(١) أبو نعيم : حلية ح ٦ ص ٢٥٧ .

ولسنا هنا في مجال التاريخ لمذهب سفيان الثوري في الفقه أو مكانته في العالم الإسلامي كمحدث .
غير أن هذا الجانب من حياته قد اتصل أكبر اتصال بالجانب الذي يعيننا - وهو الحياة الروحية لسفيان .

نشأ سفيان - كما قلت - محدثاً ، وهبه أهله « للعلم » وكان العلم يعني الحديث ، وكان الحديث أداة الفقه . ولقد برع سفيان في الحديث والفقه إلى أكبر حله عرفه العالم الإسلامي إبان ذلك الوقت ودعى سفيان بأمير المؤمنين في الحديث ، وكانت رحلاته الأولى لجمع الحديث وروايته . وحين اكتملت أداة الحديث عنده بدأ يفتي المسلمين ، فكان سفيان « أفقه الناس » ويذكر عبد الله بن المبارك الزاهد المشهور عنه « ما رأيت أحداً أفضل من سفيان ، ولا أرى سفيان مثل نفسه » بل يقول الزاهد المشهور الفضيل بن عياض « إن هؤلاء أشربت قلوبهم حب أبي حنيفة ، وأفرطوا فيه ، حتى لا يرون أن أحداً كان أعلم منه ، كما أفرطت الشيعة في حب علي ، وكان والله سفيان أعلم منه » ويقارن عبد الله بن المبارك بين مجلسه ومجلس أبي حنيفة فيقول : « تعجبنى مجالس سفيان الثوري ، كنت إذا شئت رأيت في الورع ، وإذا شئت رأيت مصلياً ، وإذا شئت رأيت غائصاً في الفقه ، فأما مجلس أتيته ، فلا أعلم أنهم صلوا على النبي ﷺ حتى قاموا عن شعب - يعني مجلس أبي حنيفة وأصحابه (١) » .
وكان سفيان الثوري يعلم أن طلب الحديث بدون عبادة ، إنما هو طلب للدنيا ، فكان يردد « الحديث أكبر من الذهب والفضة ، وليس يدرك ، وفتنة الحديث أشد من فتنة الذهب والفضة » إن الناس يطلبونه للجاه ، وللتقرب من السلطان ، وليس هو أبداً « من عدة الموت ، ولكنه علة يتشاغل به الرجل » ورأى ازدحام الناس على طلبه فكان يقول « لولا أن للشيطان فيه نصيباً ، ما ازدحمت عليه » وكم كره القراء والمحدثين حين أقبلوا على الولاية والأمراء ، يطلبون عز الدنيا بحديثهم وفقههم . وكان يردد : « إذا رأيت القارئ يلوذ بباب السلطان ، فاعلم أنه لص ، فإذا رأيت أنه يلوذ بباب الأغنياء فاعلم أنه مرأى (٢) » ، وكان يصرخ « وددت أن أنجو من هذا الأمر كفافاً لآلى ولا على (٣) » .
وبدأت سياحات الرجل . . . أولاً لطلب الحديث ، وثانياً سياحات العباد الزهاد . وهنا يقول له صديق « يا أبا عبد الله إن فيك لمعجياً » فيسأله سفيان « ما الذي بان له مني حتى يعجب ؟ فيرد الصديق « تتقلك من بلد إلى بلد ، إن للناس مأوى ، وللبيع مأوى ، وما لك مأوى تأوى إليه . . . وفاضت نفسه الكبيرة بالثورة على القراء والمحدثين ، فأخذ يتنقل من بلد إلى بلد . . . فيتنقل من الكوفة

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٢) نفس المصدر : ج ٦ ص ٣٨٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ٣٦٣ - ٣٦٩ .

إلى الشام ، ومن الشام إلى اليمن ، ثم يعود إلى مكة ، فيطوف ويصلى ، ويكثر الطواف ويكثر الصلاة ، ثم يضحج في رحاب المسجد ويظن الناس أنه اضجع حتى يصبح ، ولكنه ما يلبث أن يهب من نومه ، ويأخذ وجهته إلى الجبل الذي كان يأوى إليه ، فيصيب إبهام قدمه حجر ، فيدبها فيضجع ويقول « أف لها ما أكثر كدرها (١) » . وها هو يكتب إلى أحد أصدقائه - عباد بن عباد داعياً إلى الخمول « فإن هذا زمن خمول » ويطلب منه الاعتزال عن الناس والانفراد عنهم ، والابتعاد عن أمراء المسلمين . حتى في التشفع ورد المظالم عن الناس ، ويرى أن هذا خديعة إبليس « وإنما اتخذها فجار القراء سلباً ونهى حتى عن نصيحة الناس ، ولكنه لم يستطع صبراً ألا ينهى المهدي وقد رآه يحج في أبهة وترف (٢) » . ويذكره بحج عمر بن الخطاب المقتصد الذي ذهب إلى بيت الله في هدوء ودعة ومسكنة .

ولم تكن العبادة أو الزهد عند سفيان تعنى التبطل عن التكسب ، بل دعا القراء إلى العمل - والتكسب من ذات أيديهم . فيذهب إلى البصرة فيجلس في مجلس العابد البصرى يوسف بن عبيد . فإذا فتیان كان على رؤوسهم الطير فقال « يا معشر القراء - ارفعوا رؤوسكم ، فقد وضع الطريق ، واعملوا ولا تكونوا عالة على الناس » ويدعوهم مرة أخرى إلى عدم إظهار التخشع « لا تزيدوا التخشع على ما في القلب . . . فاتقوا الله وأجملوا في الطلب . . . ولا تكونوا عيالاً على المسلمين (٣) » . وبعد : فلقد رأى سفيان الثوري أن الحديث ليس عدة المؤمن وأن الناس إنما يتخذونه لمطالب الدنيا . ولعل أبلغ ما يعبر عن نظرتة إلى الحديث في الفترة الثانية من حياته هو ما أطلقوه على لسانه بعد موته ، حين رآه أحد أصدقائه في الحلم وسأله عما فعل الله به في آخرته ، فأجاب « عفا عني حتى طلب الحديث (٤) » .

انتهت المرحلة الأولى من حياة الرجل - مرحلة الحديث - لكي يدخل الرجل في دور العبادة ، أو بمعنى أدق مرحلة الزهد ، ولم تعرف كلمة الزهد قبل سفيان الثوري - كمصطلح يطلق على ترك الدنيا ، والانجاء إلى الآخرة وها هو يقول « الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العبا » ويقول « ليس الزهد في الدنيا ، بأكل ولبس الخشن ولا بأكل الخشب إنما الزهد في الدنيا قصر الأمل » وكان يردد « ازهد الدنيا ونم (٥) » وكان يرى أن الحكمة ثمرة الزهد ، ينبتها الله في قلب المؤمن . ثم بدأت سياحاته مع مجموعة من الزهاد ، وسار في ركابه إبراهيم بن أدهم الصوفي الحراساني

(٤) نفس المصدر: ح ٦ ص ٣٨٤ .

(٥) أبو نعيم: الحلية ح ٦ ص ٣٨٧ .

(١) أبو نعيم: الحلية ح ٦ ص ٣٧٥ .

(٢) أبو نعيم: الحلية ح ٦ ص ٣٧٢ - ٣٧٧ .

(٣) نفس المصدر: ح ٦ ص ٣٨٢ .

المشهور^(١) . . . بل اعتبره إبراهيم بن أدهم « إمام الزهاد » فيذكر صاحب الحلية « دخل إبراهيم بن أدهم المسجد بيت المقدس وسفيان الثوري وجماعة ، فلما صلوا في المسجد ، وصاروا في الصحن ، انحرف سفيان يريد الصخرة ، فقال له إبراهيم : يا أبا عبد الله . ارجع . فإنك قد ابتليت وصرت لنا إماماً . فلا يراك الناس فيروه حتماً . فانصرف سفيان وقال : صدقت : فخرجا ، ولم يمض سفيان إلى الصخرة^(٢) . وبهذا نرى أن هذا العابد المشهور هذا الأمير الخراساني الكبير - إبراهيم بن أدهم - يعتبر سفيان الثوري إمامه .

ونستنتج من هذا أن سفيان الثوري قد أصبح في هذه المرحلة « إمام الزهاد ومقدمهم » ولعل السبب في هذا أن الزهاد رأوه يجمع بين علوم الدنيا وعلوم الآخرة . فبينما شغل العباد من قبل وفي البصرة خاصة بالتعب عن الرواية ، نرى سفيان الثوري يتميز أنه دخل البيوت من أبوابها ، دخل باب العبادة من باب الفقه ، أو بمعنى أدق جمع - فيما سيعرف فيما بعد عند الصوفية بين الشريعة والحقيقة . والآن : ماهي حقيقة « الزهد » الذي بشر به سفيان الثوري في أرجاء العالم الإسلامي ، في سياحاته الطويلة ، وقد أخذ يتنقل بين المدن والقرى والبوادي والحضر ، هرباً من هارون الرشيد مرة ، ومن المهدي مرة أخرى . إن أجمل تحديد لهذا الزهد ، حين أتاه صديق له ، وسأله « أرى الناس يقولون سفيان الثوري ، وأنت تنام الليل . فقال لي - اسكت ملاك هذا الأمر - التقوى^(٣) فلم يكن إذن مرده وملاكه وجوهره تعذيب الجسد من قيام مستمر بالليل ، وصيام الدهر ، وإنما هو تهذيب النفس من شوائب الدنيا ولذلك كان يقول « ما عالجت شيئاً قط أشد على نفسي ، مرة على ، ومرة لي^(٤) » هذا بالرغم من أن ثيابه ونعليه قد قومت ، فلم يصل ثمنها إلى أكثر من درهم وأربعة دوايق ، وكان يقضى الأيام بدون طعام وكان من الخائفين بل كان من البكائين . وكان يعيش في خوف دائم من عذاب الله كما كان يصلّي الليالي الطوال ، وتذكر المصادر أنه كان يستمع إلى آيات العذاب ، فيطيش ويخرج هائماً . وكان يقرأ يوماً في الزوال فرب هذه الآية « فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ - يوم عسير » فخرج هارباً هائماً على وجهه حتى رده أصحابه إلى الكوفة^(٥) . . . بل إنه خلف المقام وفي أعماق الكعبة ، رفع رأسه إلى السماء ، فانقلب مغشياً عليه ، فأدخلوه وصبوا عليه الماء ، حتى أفاق ، وعلق تلميذ من تلامذته « ليس النظر قلبه وإنما قلبه الفكرة » وكان يبكي حتى في الصلاة ، فينقطع ثم يعيد التلاوة .

(١) أبو نعيم : حلية ص ٧ ص ٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٧ ص ٣٩ .

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٣٣٨ ، ٤٨٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٨ ص ٥٠ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٨٣ .

وإذا كان جوهر الزهد عنده هو التقوى ، فإن اليقين أيضاً هو عنصره الأساسى « ولو أن اليقين استقر فى القلب ، كما ينبغى ، لطار فرحاً وحنناً ، شوقاً إلى الجنة ، أو خوفاً من النار »^(١) .
والعنصر الثالث للزهد عنده هو سقوط المتزلة . فقد سئل سفيان « ما الزهد فى الدنيا ؟ » فقال « سقوط المتزلة »^(٢) . ولذلك خرج هائماً على وجهه ، ورفض القضاء للمهدى . واستر واخفى ، فلما قابله أمراء المهدي ، أخذ ينقدم بعنف وقوة . مضى الرجل مبشراً بالزهد ، فى قوة وحماس ، كما كان ينشر الحديث ، وكان يعلن « عليكم الزهد ، يبصركم الله عورات الدنيا ، وبالورع يخفف الله عليكم حسابكم ، وادفعوا الشك باليقين ، يسلم لكم دينكم » ويتنقل من مكان إلى مكان ، ويكوم الحصا يستند عليه ، ويتكى وينام فى الجبال ويقول « هذا خير من أسرهم »^(٣) . وكان يرى الزهد الحق فى سقوط المتزلة وعدم قبول الرياسة ، يقول سفيان « ما رأيت الزهد فى شيء أقل منه فى الرياسة ، ترى الرجل يزهد المطعم والمشرب والمال والثياب ، فإذا نوزع فى الرياسة ، حامى عليها وعادى »^(٤) . ثم انتهى الزهد بسفيان الثورى إلى الزهد فى الناس وأول الزهد فى الناس زهدك فى نفسك^(٥) وتمنى سفيان الموت تملكاً صادقاً ، وكان يذكر الأثر : « الناس نيام ، فإذا ماتوا ، انتبهوا »^(٦) .

أما بعد : فقد كان لدخول سفيان الثورى - وهو إمام العلم - الحديث والفقه - إلى حياة العبادة ، ومناذاته بالزهد - علل وأسباب أما أولها وأهمها - فهو العامل النفسى ، فقد كان الرجل ، يرى منذ نشأته الأولى - أن على طالب الحديث أن يقضى عشرين عاماً فى العبادة ، فإذا طلب الحديث بعد ذلك فإنما يطلبه ابتغاء مرضاة الله ، وتقرباً له . ولما سار شوطاً بعيداً فى الحديث أدرك أنه إنما يطلب للدنيا ، فتأقت نفسه للعبادة - ثانيها مقابلاته المتعددة لعباد المسلمين فى الكوفة ، وفى البادية ، ثم فى البصرة ومكة . وفى كل هذه المقابلات يظهر عالم الحديث القديم إماماً للزهاد والعباد . فإبراهيم بن أدهم - على جلالته قدره - يعتبره إماماً - ويطلب منه ألا يقف عند الصخرة فى بيت المقدس حتى يراه الناس ، فتكون سنة لمن بعده ، وقد أطاع إمام الزهاد . ولم يفعل . ونحن نتساءل : هل فقه إبراهيم ابن أدهم السنة أكثر من علمها . أم أن مغزى القصة أن سفيان الثورى كان لم يبلغ بعد المنى الحقيقى لطريق العبادة وجوهرها : عدم الشهرة ، فرده أمير خراسان المترهد : ولقد تبه العباد من بعدهما إلى وجه الفرق بينهما . ولكن يبدو دائماً سفيان الثورى فى القمة فى الطريق . لقد سئل يمان بن معاوية

(١) ابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٨١ ، ٨٢ .
(٢) أبو نعيم : الخلية ح ٧ ص ١٧ .
(٣) نفس المصدر : ح ٧ ص ١٦ .
(٤) أبو نعيم : الخلية ح ٧ ص ٣٩ .
(٥) أبو نعيم : الخلية ح ٧ ص ٦٩ .
(٦) نفس المصدر السابق ح ٧ ص ٦ .

المشهور بالأسود العابد : رأيت إبراهيم بن أدهم . فضحك وقال : وأكبر من إبراهيم . قيل له : من ؟ : قال سفيان الثوري : ثم قال : سمعت أختي سفيان الثوري : ما كان الله لينم على عبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة . ويحق على المنعم أن يتم على من أنعم عليه ^(١) . فالثوري إذن قد صاحب معاوية الأسود ^(٢) ، وسار معه شوطاً ، كما صاحب أبا حبيب البدوي - وهو أيضاً من كبار العباد : وهو نفسه يقول : أصبت قلبى يصلح بين مكة والمدينة بين قوم غرباء - أصحاب بتوت وعباد . كان الثوري إذن يفتش عن هؤلاء ، لكي يطمئن قلبه ويصلح ، وفي الطريق بين مكة والمدينة قابل العابد المشهور أبا حبيب البدوي . ويقص هو نفسه أنه قال له حين قابله « يا سفيان : هل رأيت خيراً قط إلا من الله . ؟ : قلت لا : قال : فلم نكره لقاء من لم تر خيراً قط إلا منه » يا سفيان منع الله لك عطاء ، وذلك أنه يمنعك من غير مجل ولا عدم ، ولكن نظراً لك واختياراً . . . ثم قال له : يا سفيان : إن فيك لأنساً ، وإن عنك لشغلاً ^(٣) :

وفي مكة قابل سفيان الزاهد الكوفي الفضيل بن عياض وكان قد استقر في مكة - وكان يلتقيان في المسجد الحرام فما يتذكران إلا النعم ، حتى يفترقا - يقول فضيل لسليمان : يا أبا محمد ألا عمل بنا كذا « ويقف فضيل على رأس سفيان وحوله جماعة ، فقال له « قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » ويرد سفيان فيقول له « يا أبا علي . والله لا نفرح أبداً حتى نأخذ دواء القرآن ، فتضعه على القلب ^(٤) . » ويتقابلان مرة ثانية ، فتذاكرا ويكيا . ويقول سفيان : إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة : فرد الفضيل : ترجو ، لكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه علينا شؤماً . أليس نظرت إلى أحسن ما عندك ، فتزينت به لي ، وتزينت لك ، فعبدتني وعبدتك . فبكى سفيان ، حتى علا نحيبه . ثم قال : أحييتني أحياءك الله ^(٥) . ويبدو هنا أيضاً الزاهد الكوفي القديم عالياً على سفيان . ولكن الفضيل نفسه حين سئل في بعض ما كان يذهب إليه من الورع : من إمامك . فقال : سفيان الثوري ^(٦) .

ثم نراه يسمي إلى شيبان الراعي ، ويخرج معه للحج مشاة . ويقص سفيان أنها لما صاروا ببعض الطريق ، إذا بأمد يعارضهما . فقال سفيان لشيبان : أما ترى هذا الكلب قد عرض لنا . فقال لي :

(١) نفس المصدر ج ٧ ص ٥٢

(٢) أنظر ترجمة معاوية الأسود - أبي نعم : حلية ج ٨ ص ٢٧١ - ٢٧٣

(٣) أبو نعم : حلية ج ٧ ص ٦ ، ج ٨ ص ٢٨٧ - ٢٨٨

(٤) أبو نعم : حلية ج ٨ .

(٥) نفس المصدر ج ٧ ص ٦٤ .

(٦) نفس المصدر ج ٧ ص ٣ ، والحريش . الروض الفائق ص ٨٧ .

لا تخف يا سفيان . ثم صاح بالأسد فبصبص وضرب بذنبه مثل الكلب ، فأخذ سفيان بأذنه وعركها . وكره سفيان هذا - وقال له : ما هذه الشهرة . فرد سفيان الراعى وأى شهرة ترى يا ثورى : لولا كراهية الشهرة ، ما حملت زادى إلى مكة إلا على ظهره ^(١) . ويبكى سفيان بين يديه من أول الليل إلى آخره - ويسأل شيان : يا سفيان : لم بكائك . إن كان لأجل المعصية ، فلا تعصه . ويجب سفيان : بأن الذنوب لم تخطر بباله قط ، صغيرها ولا كبيرها . « وليس بكائى يا شيان من أجل المعصية ، ولكن من خوف الحاتمة » ، ويعلمه شيان فيقول « إن من شؤم المعصية ، الإصرار على الذنوب ، فلا تعص ربك طرفة عين ^(٢) » . وهنا يبدو شيان معلماً « لأمير الحديث » ، ثم إمام العباد « يعلمه معانى الشهرة ، ثم يطلب منه أن يكون في مقام المراقبة ، يراقب نفسه فلا تعص الله طرفة عين .

وكما سعى سفيان إلى أبى حبيب البدوى وشيخان الراعى ، سعى أيضاً فى طلب عابد من عباد الكوفة يقال له « الكوثانى » لمدة عشرين سنة ، فلم يتمكن من مقابلته ، حتى مر يوماً بشاطئ الفرات ، وقوم يعملون فى الطين ، فنادى رجل منهم الآخر « يا كوثانى » فذهب إليه سفيان ، وقدم إليه نفسه ، وطلب منه أن يعظه . ثم تركه الكوثانى وانصرف ^(٣) .

وكان سفيان الثورى على صلوات بداود الطائى - الزاهد الكوفى ، وكان داود من تلامذة أبى حنيفة ، ولم تكن الصلوات بين سفيان وأبى حنيفة طيبة ، ولكن لم يمنع هذا العابد الكبير من أن يكيل المدح لداود ، فكان سفيان إذا ذكر داود قال « أبصر الطائى أمره ^(٤) » .

كذلك كان الأمر فى صلواته بالعابد الزيدى « الحسن بن صالح بن حى » كان الحسن بن صالح ابن حى من كبار محدثى الإسلام ، ومن كبار عباد . بل كان درة من درر الزهد الحقيقى ، وكثيراً ما اجتمع بسفيان . وكان اجتماعهما اجتماع صفاء وعبية . وقد يؤدى هنا بنا إلى إثارة فكرة زيدية سفيان . هل كان سفيان زيدياً ، وقد حاول العلامة العراقى الدكتور كامل الشيبى إثبات زيدية سفيان ، وقد استند على نصوص قوية تثبت هذا ^(٥) . غير أن فى هذا كثيراً من التعالى : فلم يكن سفيان زيدياً - بمعنى دخوله فى نظام شيعى معين ، وإنما كان « كوفياً » أحب علياً ، كما أحب الشيعين . . . بل إنه

(١) أبو نعيم . حلية ح ص ٩٦ .

(٢) الحريش : الروض الفائق فى المواعظ والرقائق ص ١١ .

(٣) أبو نعيم . ح ٧ ص ٨ .

(٤) نفس المصدر : ح ٧ ص ٣٣٦ .

(٥) الدكتور كامل الشيبى الصلة : ح ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

أحب عثمان ، وكان يقول « لا يجتمع حب علي وعثمان إلا في قلوب نبلاء الرجال » إنه تولاهم جميعاً . ولكنه - كسائر الكوفيين - يفضل علياً على أبي بكر وعمر^(١) . وهذا هو سبيل العباد والزهاد من المسلمين : تولوا الجميع ، ولكنهم أحبوا صاحب الروح والعباد الأول من صحابة محمد رسول الله . ولم يكن هؤلاء كل من قابلهم سفيان الثوري وأثروا في اتجاهه العبادي ، بحيث أصبح شيخ الزهاد في الكوفة ، بل شيخ الزهاد في العالم الإسلامي ، وأعطى للزهد - كمذهب في الحياة - صبغته المشروعة في الحياة الإسلامية . إن المصادر تحمل إلينا أسماء رجلاً وامرأتين كان لهما الأثر النافذ في اتجاه سفيان الثوري الروحي .

أما الرجل : فهو أبو هاشم الكوفي أو أبو هاشم الصوفي ، وسنعود إلى بحث قصة أبي هاشم الكوفي بعد قليل . غير أننا نود أن نشير هنا فقط إلى أن المصادر تذكر أنه كان معاصراً لسفيان الثوري ، وأن سفيان قال عنه « لولا أبو هاشم ما عرفت دقيق الرياء » ، وقد ذكر هذا النص أيضاً ابن الجوزي عن سفيان في صورة أخرى « ما زلت أرائي ، وأنا لا أشعر ، حتى جالست أبا هاشم ، فأخذت منه ترك الرياء^(٢) » . ويلاحظ هنا أن سفيان الثوري يبحث وراء هذه الشخصية التي قيل إنها أول من نسمي بالصوفي ، وأنه جلس وتعلم منه تحركات القلب في موضوع من أدق موضوعاته .

أما المرأتان : فأولهما : بنت أم حسان الأسدية : ويبدو أنه قابلها في البصرة . وكان يدخل عليها ، كان يراها ساجدة ، فإذا ما قامت من سجدها يرى أثر السجود على جبهتها ، وليس به خفاء . ويطلب منها أن تذهب إلى أمير البصرة ، وأن تطلب بعض زكاة ماله ، لتستعين به على أمرها . إنه مازال في باب الفقه . وترد عليه العابدة الكبيرة : « يا سفيان . لقد كان لك في قلبي رجحان كبير ، فقد أذهب الله برجحانك من قلبي . يا سفيان تأمرني أن أسأل الدنيا من لا يملكها . وعزته وجلاله إني أستحي أن أسأله الدنيا ، وهو يملكها » . ويقص سفيان الثوري ، أنه كان إذا جن عليها الليل ، دخلت محرراً لها ، وأغشقت عليها ، ثم نادى « إلهي خلا كل حبيب بحبيبه ، وأنا خالية بك يا محبوب ، فما كان من سجن تسجن به من عصاك إلا جهنم ، ولا عذاب إلا النار » ودخل عليها سفيان بعد ثلاث ، فإذا الجوع قد أترق وجهها ، فأخذ يترنم بالقرآن وهو جالس ينظر إليها . ثم يقول لها : « يا بنت أم حسان . إنك لن تؤثني أكثر مما أوثق موسى والخضر عليهما السلام . إذ أتيا أهل القرية ، فاستطعا أهلها » فردت عليه : يا سفيان : قل الحمد لله : فقال الحمد لله . فقالت : اعترفت له بالشكر . قلت : نعم . قالت : وجب عليك من معرفة الشكر شكر ، ومعرفة الشكرين ، شكر لا ينقض ويعترف سفيان :

(١) أبو نعيم : حلية ح ٣ ص ٣١ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ح ص ١٧٢ .

فصبر والله علمي ، وفسد لساني ، وما أقوم بشكر ، كلما اعترفت له بنعمة ، وجب علي بمعرفة النعمة شكر ، وبمعرفة الشكرين شكر ووليت وأنا أريد الخروج وهنا تصيح فيه : يا سفيان . كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله ، وكفى بالمرء علماً ، أن يحشى الله . اعلم أنك لن تنقى القلوب من الردى ، حتى تكون الهموم كلها في الله همّاً واحداً . . . ويقول هذا الفقيه الكبير ، أمير الحديث : فقصرت والله في نفسي (١) .

وفي أعماق البصرة ، يقف الفقه والحديث أمام العبادة ، أمام الزهد . وتصور لنا المصادر هذا الأخير عالياً على الأول ، وإمام الحديث وصاحب المذهب الفقهي الكبير في مجلس التلميذ أمام المغنية الغانية ، عازفة الألحان الدنيوية ، أمام رابعة العدوية . وكان يأخذ . . . بيد جعفر بن سليمان ويقول له « مر إلى المؤدبة التي لا أجد من أستريح إليها إذا فارقتها » هنا يقف الفقيه الكبير أمام هذه الزاهدة ، عاشقة الله ، موقف التلميذ ، وهي تنهيه الدنيا ، تنهيه عن الكبر والرياء وتنهيه عن الحديث كانت ترنو في دلال حزين - وقلق الحب وحيرته تحرقها - إلى محدث العالم الإسلامي الأكبر ، وهو جالس بين يديها ، وفي وعاء قلبه حديث محمد ﷺ ، أما هي ، فكانت تتغنى بالحللة ، المرتبة الأخيرة للرسول ، حيث اقترب ، بل استهلك ، في مقام قاب قوسين أو أدنى . ثم تقول « نعم الرجل أنت ، لولا رغبتك في الحديث . . . ثم تنطلق تغنى :

إني جعلتك للفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجلس مؤانس وحبب قلبي في الفؤاد أنيسي

ويبدو أن الرجل - محدث الأمة الإسلامية قد انتهى الإيمان « بالحللة » وهناك نص نادر ، لم ينتبه إليه أحد من الباحثين ، « وذلك أن سفيان الثوري قد سئل عن تفسير قول إبراهيم : « ليظمن قلبي » ، فقال « سفيان بالحللة (٢) » . « وبهذا أصبح سفيان الثوري تلميذاً لمدرسة الحللة التي كانت رابعة العدوية رائدتها الأولى »

ولم تنته مدرسة سفيان الثوري بوفاته ، لقد ترك في الكوفة « حلقات الزهد » تعمل باسمه ، كما ترك بأصهبان ، وقد ترك مجموعة من تلامذته . ويخبرنا صاحب الحلبة عن « أصحاب سفيان الثوري ومنزلتهم في العلم والعبادة ومكارم الأخلاق ، وفواضل الأعمال » . وكان الزهاد « تفرغ إلى أدعيتهم عند نزول المحن والأعلال . فترى الإجابة في الوقت . يقصدون من الديار والنواصي البعيدة ، يسألون الدعاء في عوارضهم ، فيدعون ويرون الإجابة (٣) » .

(١) أبو نعيم : الحلبة ح ٣ ص ١٠٠٩ ، وابن الجوزي : صفة ح ٤ ص ٣٠ .

(٢) أبو نعيم : الحلبة ح ٧ ص ٧٦ . (٣) نفس المصدر ح ١٠ ص ٣٩٤ .

وبهذا عاش مذهبه الزهدي ، كما عاش مذهبه الفقهي مدة طويلة من الزمن . بل يرى العلامة العراقي الدكتور كامل الشيبلي أن لسفيان في الزهد مقاماً من أكبر المقامات . إنه يرى أن « ميل سفيان إلى المذهب الزيدي آت من أن عقيدة الزيدية تقضي بأن الإمام ليس معصوماً ، وليس أعلم المسلمين ولا يتميز عنهم إلا بأنه علوي فاطمي ، يصلح لإمامة المسلمين . أما التفوق في العلم فيسر لمن انقطع له . ويجب أن نكرر هنا أن هذه النظرية الزيدية ، هي التي فتحت للزهاد باب الولاية ، وأثارت في نفوسهم الطموح إليها . فما دام المجال قد انفتح أمام المسلم بعمله وجهده ، لا بتوقيف ولا بنص الهين . فقد زال الحاجز الذي كان يطمئن من غلواء الزهاد ، فرأينا سفيان نفسه يجرؤ على نقد الإمام الصادق على لبسه الخبز ، وكان عيسى بن زيد بن علي يحتكم إليه ^(١) .

وحقاً إن سفيان الثوري فتح للزهاد طريق الولاية المستندة على العمل والاجتهاد والعلم ، ولكنه لم يكن زيدياً - بمعنى الكلمة . على أن كل هذا دليل على أن الرجل أثر في الزهد والزهاد ، أكبر تأثير . بل حمل عنه الزهد ، مجموعة من كبار الزهاد كعبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط .

٢- داود بن نصير الطائي : الصمت والثورة على الفقه :

وتظهر فكرة الزهد - عالية على الفقه في الكوفة أيضاً - موطن الفقه وعلى يد فقيه ومحدث هو داود ابن نصير الطائي (المتوفى عام ١٦٥ هـ) ، وقد اعتبرت كتب النصوص داود الطائي أول الزهاد الرسميين في العالم الإسلامي ، وأرخوا له جميعاً في كتبهم . وكان - بالذات - من رجال « الرسالة القشيرية والتي حاول صاحبها أن يورخ في براعة نادرة للتصوف منذ نشأته .

ولقد نشأ داود نشأة علمية خالصة ، وكان العلم يعني في هذا الوقت الحديث والفقه ، وتلمذ على أبي حنيفة . وكان داود الفارسي المجلي في حلقة أبي حنيفة . وفي إحدى مجالسه قال له أبو حنيفة : يا أبا سليمان : أما الأداة فقد أحكمتها ، فسأله داود : فأى شيء بقي . فقال أبو حنيفة : العمل به . ويقص هو نفسه : فإزعتني نفسي إلى العزلة والوحدة ، فقلت لنفسي : حتى تجلس معهم ولا تتكلم في مسألة . فجالستهم سنة ، لا أتكلم في مسألة ، وكانت المسألة تمرى . وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعاً من العطشان إلى الماء البارد ، ولا أتكلم به ^(٢) . . . » هنا يضع داود الطائي للتصوفية من بعده طريق تصفية النفس ونوازعها ، والتخلص من عجبها وغرورها . ويفرض على نفسه « الصمت » أو « الصوم عن الكلام » وهنا تتساءل : هل هنا أثر مسيحي ، فقد كان الرهبان يفرضون على أنفسهم الصمت ،

(١) الدكتور الشيبلي : الصلة - ح ١ ص ٢٩٧

(٢) أبو نعيم : الحلية - ح ٧ ص ٣٤٢ والرسالة القشيرية - ح ١ ص ٧٤

للد طويلة . ولا أجد في تاريخ داود الطائي ما يثبت هذا . كان الأمر كله منازعة نفسية ، وموقفاً داخلياً ، حين نبه أستاذه الكبير أبو حنيفة إلى فكرة العمل ، وبخاصة أن عوامل متعددة قد دخلت في أعماق الرجل . فقد ذكر القشيري أن داود كان يمر ببغداد يوماً ، فنجاه المطرقون أي الحرس بين يدي الوزير حميد الطوسي ، ويبدو أنه كان على معرفة بحميد . فقال داود : أف لدنيا سبقك بها حميد . كما يقال أيضاً إن سبب زهده أنه سمع نائحة تقول :

بأى خديك تبدي البلى وأى عينك إذا سالا

وترد القصة عند ابن الجوزي في صورة أخرى من أنه سمع هذه النائحة على مقبرة تقول : يا حبي - ليت شعري - بأى خديك بدأ البلى ، بالأيمن أم بالأيسر . فصفق وترأت أمامه الصور . ودخل مرة أخرى إلى مقبرة ، فسمع امرأة عند قبر وهي تقول :

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه لقاؤك لا يرجي وأنت قريب
تزيد بلى في كل يوم وليلة وتلى كما تبكي وأنت حبيب^(١)

وانتهى الأمر بداود أن « أزم البيت وأخذ في الجهد والعبادة^(٢) » أو بمعنى أدق ، دخل في مرحلة قطع العلائق .

وفي هذه المرحلة كان ينادى : سبقني العابدون وقطع بي ، والحفاه^(٣) .

أما آراء داود الطائي الروحية : فيمكن وضعها على النسق الآتي : إن العلم وحده ليس طريق النجاة ، إنه مرحلة لا بد منها ، ولكن على أن يعقبا العمل « إن العلم آلة العمل ، فإذا أفنى عمره فيه ، فنى يعمل^(٤) » وقد رأى فقه إمامه أبي حنيفة ينتهي إلى التفتين للدنيا ، وسيخرج - كما قدر هو - إلى خدمتها فقط ، فنشأت « الحليل الشرعية » على يد تلامذة أبي حنيفة . فقام هو بثورته على الفقه . بل لما « علم أنه بصير ، عمد إلى كتبه . فغرقها في الفرات » وكان يجيب إذا سئل « انقطع الجواب^(٥) » كانت ثورة عاتية على الفقه وفي مجلس أبي حنيفة نفسه .

وأعلن أيضاً فكرة « الفرار من الدنيا » إنه ماخالط الناس أحد إلا نسي المهدي ، ويجك صم الدنيا ، واجعل الفطر صوتك ، ولكنه لا ينسى الفقه أبداً « اجتنب الناس غير تارك لجماعتهم » . ويضع للمسلمين خطوات الطريق : كفى باليقين زهداً ، وكفى بالعلم عبادة ، وكفى بالعبادة شغلاً ثم يضع اصطلاح المرید والزاهد « من علامات المریدین الزاهدین في الدنيا ترك كل جليس لا يريد ما يريدون^(٦) » .

(٤) أبو نعیم : الخلية ح ٧ ص ٣٤١ .

(٥) نفس المصدر ح ٧ ص ٣٣٦ .

(٦) نفس المصدر ح ٧ ص ٣٤٦ .

(١) ابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٧٤ .

(٢) الرسالة : ح ١ ص ٧٤ .

(٣) أبو نعیم : الخلية ح ٧ ص ٣٣٦ .

وأبى داود الطائى بدلوه لا فى أعماق الزهد وحركاته ، بل فى أعماق التصوف ، فزى إبراهيم بن أدهم يتقل عنه « إن للخوف تحركات ، تعرف فى الخائفين ، ومقامات يعرفها المحبون ، وإزعاجات يفوز بها المشتاقون وأن أولئك ، هم الفائزون » (١) . وكان يصيح بالليل « إلهى همك عطل على المهموم الدنيوية ، وحال بينى وبين الرقاد » (٢) .

وهذا كلام خطير فى أعماق التصوف . ولا جرم بعد ذلك أن أتاه كبار الزهاد من كل مكان . الفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وسفيان بن عيينة وسفيان الثورى . وكان سفيان يبكى بين يديه ، كما كان له أثره الكبير فى أبى سليمان الدارانى شيخ مدرسة الشام . ومن هذا نرى أنه اتبثق فى أعماق هذا الفقيه الخوف العارم ، خوف مشوب بالحب ، ومعانياته ، والشوق وأشجانه . فعاش حياة زاهدة قاسية ، لم تعرفها الكوفة فعلاً ، وقد امتلأت كتب التصوف بالأخبار التفصيلية عن تزهدده كما امتنع عن الزواج .

ولقد رأى العلامة العراقى الدكتور كامل الشيبى فى امتناع داود الطائى عن الزواج أثراً مسيحياً . يقول « وزاد تأثير النساك فى داود حتى رأيناه يتخذ التبتل منهجاً لحياته ومظهراً لها ، فبى أربعاً وستين سنة أعزب ، وقد علل ذلك بقوله « قاسيت شهوتين عند إدراكى سنة ، ثم ذهبت شهوتين من قلبى - فداود إذن أول زاهد دخل فى زهدده العامل المسيحى واضحاً » (٣) .

وفى الحقيقة إن من الصعوبة بمكان تبيين العامل المسيحى فى زهد داود الطائى ، أوحى فى امتناعه عن الزواج . إننا لا نرى أدنى اتصال بينه وبين الرهبان المسيحيين ، اللهم إلا إذا كانت أخبار الرهبان قد استفاضت ، ووصلت إلى أعماقه . إن تزهدده - كما رأينا - كان ناشئاً عن ضيقه بجمود الفقه وحيله ، وابتعاده عن الفكرة الأخروية ، فليس إذن ثمة مجال للقول بأنه تأثر بالرهبة المسيحية ، ولكننى مع ذلك أود أن أعلق المسألة . أو بمعنى آخر ، إنه من المحتمل أن يكون قد تأثر فى امتناعه عن الزواج بالرهبة المسيحية ، ولكن ليس بين أيدينا من النصوص ما يحقق هذا تحقيقاً حاسماً . إننا قد رأينا أنه يطلب الصوم الدنيا ، وأن يكون الموت هو فطر المؤمن ، ولكنه يطلب « عدم مفارقة الجماعة ، جماعة المسلمين . فهل فى هذا أثر مسيحى أو أثر رهبة . كما أن الرجل لم يحاول قط أن يدفع بالمسلمين إلى طريقتة ، أو أن ينشئ دويرة ، كان يرى أن الناصر أضعف من أن يتحملوا ما تحمل . ثم إنه كان دائم الصلاة فى المسجد ، فلم ينقطع عنه يوماً .

وبعد : فقد كان داود الطائى الشخصية الثانية التى أعلنت الزهد من مدرسة الكوفة . وسيدكر

(١) نفس المصدر ح ٧ ص ٣٤٦ .

(٢) الدكتور الشيبى : الصلاة ح ١ ص ٢٩٨ .

(٣) الرسالة ح ١ ص ٧٥ .

الجامى أنه كان من أقران الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ، كما سيذكر العطار أنه كان شيخ طريقة الراعى^(١) .

أما الممثل الثالث للزهد السنى إبان ذلك الوقت وكان معاصراً ، بل كان من أقران داود الطائى ، فهو الفضيل بن عياض ، وكان الفضيل خراسانياً ولكن قيل إن أصله من الكوفة ، ثم انتقلت أسرته إلى خراسان ، فإذا من الأفضل أن نضعه فى مدرسة خراسان وأن نبحثه فيها . هذا مع العلم بأنه من الصعوبة بمكان أن نفصل الاتجاهات المشتركة بين المدارس وأفرادها ، علاوة على أن الفضيل بن عياض أتى الكوفة ، وقابل داود ، كما قابل سفيان الثورى . وكذلك فعل إبراهيم بن أدهم ، ثم إن الفضيل بن عياض انحدر بعد ذلك إلى مكة حيث عاش ومات .

إن ما أود أن أنهى إليه أن « الزهد » كمصطلح نشأ فى أعماق الكوفة ، ولم يظهر فى البصرة . وسرى نفس الأمر فى مصطلح التصوف .

وأنقل الآن إلى بحث مدرسة الكوفة الشيعية الزاهدة ، والتي أبدت من ناحيتها أيضاً قواعد الزهد ثم التصوف .

(١) الدكتور الشيبى : ح ١ ص ٢٩٨ .

الفصل الرابع

مدرسة الزهد الشيعي الأول

ولست أقصد بكلمة « الشيعي » هنا مجموعة من الناس اتخذت نظاماً خاصاً في الحياة يختلف عن نظام المجموعة السنية . لم يكن الشيعة الأوائل المقتصدون يختلفون أدنى اختلاف عن غيرهم من المسلمين ، كان الجميع يتولون الشيوخ ، ولكن مجموعة خاصة ، ارتبطت بعلي بن أبي طالب برباط وثيق من المودة والمحبة جعلتهم يؤمنون بأحقيقته بالخلافة وإمامة المسلمين قبل الشيوخ ، ولكنهم أطاعوا الشيوخ ، بل أطاعوا الشيخ الثالث أيضاً : ومن أمثال هؤلاء : أولاد بني صوحان وحجر بن عدى نفسه . ولما مات الخليفة الثالث ، ونوزع على بن أبي طالب الخلافة ، تقدم هؤلاء الشيعة المقتصدية وحاربوا لأجل إمامهم واستشهدوا ، أو ذهبوا بعد مقتل الإمام إلى بيوتهم للعبادة - نائين عن الدنيا .

١- أويس القرني : قطب الغوث : الأشعث الأغر :

ولقد تعودت الشيعة أن يضعوا من أوائل رجالهم شخصية غريبة ، ظهرت في الكوفة ، وعليها كثير من ظلال التاريخ . وعلى مجلى الحياة الروحية في الكوفة ، ظهر « أويس بن عامر القرني » في بعض الأقوال ، وأويس بن أنيس أو أويس بن حليس في أقوال أخرى^(١) . وكان أويس أسطورة « التصوف » فيما بعد . وقد وصفه صاحب الحلية فقال « سيد العباد وعلم الأصفياء من الزهاد ، بشر النبي ﷺ به ، وأوصى به أصحابه »^(٢) وقد اعتبر أول الثمانية الذين انتهى إليهم الزهد من التابعين . أما عن تبشير النبي به - فقد ورد في الحديث « إن الله عز وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء ، الشعثة رؤوسهم المغيرة وجوههم ، الخمصة بطونهم ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء ، لم يؤذن لهم ، وإن خطبوا المنعمات لم ينكحوا ، وإن غابوا لم يفتقدوا ، وإن طلعا لم يفرح بطلعتهم ، وإن مرضوا لم يعادوا ، وإن ماتوا لم يشهدوا . . . ذلك أويس القرني » ولما سأله الصحابة « وما أويس القرني » قال « أشهل ذو صهوبة ، بعيد ما بين المنكين ، معتدل القامة ، شديد الأدمة ضارب بدقته

(١) ابن الجوزي : صفة ح ٣ ص ٣٢ .

(٢) أبو نعيم : حلة ح ٢ ص ٨٩ .

إلى صدره ، رام ببصره إلى موضع سجوده ، واضع يمينه على شماله ، يتلو القرآن ، يبكي على نفسه ، ذو طمرين لا يؤبه له . مترر بإزار صوف ، ورداء صوف ، مجهول في أهل الأرض ، معروف في السماء ، لو أقسم على الله ، لأبر قسمه ، ألا وإن تحت منكب الأيسر ، لمعة بيضاء ، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة ، قيل للعباد . . . ادخلوا الجنة ، ويقال لأويس : قف فاشفع ، فيشفعه الله عز وجل في مثل ربيعة ومضر^(١) ثم ينادى الرسول عمر وعليا ويقول لهما « يا عمر ، يا علي ، إذا أنما لقيتاه ، فاطلبا إليه أن يستغفر لكما ، يغفر الله لكما^(٢) » .

وبعد : فهذه صورة « قطب الغوث » التي انتشرت في أوساط الصوفية فيما بعد : الضنى الخفي البريء الأشعث الأغبر ، سيد عباد الروح ، يمشي في طمرين ، لو أقسم على الله لأبره . . . وإن صح الحديث لكان لفكرة « قطب الغوث » أصل إسلامي . . . وأياً ما كان الأمر فإن عمر وعلياً مكانا يطلبانه عشر سنين . . . في حجيج أهل اليمن من القرنين . . . حتى وجداه في حجيج الكوفة . . . راعى إبل وأجير قوم . . . ووقف أمامه الصاحبان الكبيران يرددان . . . نشهد أنك أويس القرني ، فاستغفر لنا يغفر الله لك « وينظر إليها راعى الغنم في دهشة ، لقد عرف أمره ، ويرد عليها » ما أخص باستغفاري نفسي ولا أحداً من ولد آدم ، ولكنه في البر والبحر ، في المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات « إنه يطلق استغفاراً كونياً ، يملأ الدنيا جميعاً وقد رآها قد طويت له . . . ثم سألها من أنما : فأجابه علي بن أبي طالب . فاستوى أويس قائماً . . . وقال « السلام عليك يا أمير المؤمنين . . . وأنت يا ابن أبي طالب . فجزاكما الله عن هذه الأمة خيراً . . . ويطلب منه عمر أن يبيي مكانه حتى يأتيه بنفته وبعض ملابس . وأن هذا المكان « معاد بيني وبينك » فيرد أويس « يا أمير المؤمنين لا معاد بيني وبينك . لا أراك بعد اليوم تعرفني . ما أصنع بالفقعة ، ما أصنع بالكسوة . أما ترى علي إزاراً من صوف ، ورداء من صوف ، متى تراني أخرجها . أما ترى نعلي مخصوفتان - متى تراني ألبئها . أما تراني قد أخذت من رعائتي أربعة دراهم ، متى تراني آكلها . يا أمير المؤمنين ؟ ، إن بين يدي ويدك عقبة كؤودا لا يجاوزها إلا ضامر مخفف مهزول ، فاحذف يرحمك الله . . . » فلما سمع عمر كلامه صرخ ، ونادى بأعلى صوته « ألا ليت ابن أم عمر لم تلده ، ياليتها كانت عاقراً لم تعالج حملها ، ألا من يأخذها ، بما فيها ولها لقد وقف أمير المؤمنين » ، أمير الدنيا من « راعى الغنم الأجير » موقف التلميذ من الأستاذ ، أو بمعنى أدق موقفاً قرآنيًا ، موقف موسى من الخضر ، موقف الفقه من التصوف . وهل القصة كلها حق ، أم هي أسطورة من أساطير المتصوفة ، حيث يقف التصوف عالياً على الفقه . . . ويطلب أويس من عمر « يا أمير المؤمنين خذ أنت هاهنا حتى آخذ أنا هاهنا » فولى عمر وصحبه على

(١) أبو نعيم : حلية ح ٢ ص ٨١ ، ٨٣ وابن الجوزي ح ٣ ص ٣٣ .

ناحية مكة ، وساق أويس إبله إلى أصحابه ، وسلم القوم إبلهم ، ثم اختفى ، مقبلاً على العبادة (١) . هذه هي القصة الصوفية الأسطورية لأويس القرني . . . ولكن المصادر تمدنا بصورة أخرى قد تكون أقرب إلى الحقيقة ، هو أن أويسا القرني كان من عباد الكوفة ، يسير فيها مشتراً بطمرين . . . يسخر منه الناس وهو لا يأبه لهم . لقد وصف نفسه قائلاً « كيف الزمان على رجل إن أصبح ظن أن لا يمسي ، وإن أمسى ظن أن لا يصبح ، فبشر بالجنة أو مبشر بالنار إن الموت وذكره لم يدع المؤمن فرحاً ، وإن علمه بحقوق الله ، لم يترك له في ماله فضة ولا ذهباً ، وإن قيامه بالحق ، لم يترك صديقاً » . . . وأنه كان يتصدق كل ليلة بما في بيته من الثياب والطعام ثم يقول « اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به ، ومن مات عرباناً فلا تؤاخذني به » . فيكسوه أصدقاؤه الثياب . ثم هو يتأذى عن الحديث ، ولا يقبل الفضاة ولا الفتوى ، إنه في شغل من نفسه . وتذكر المصادر أن الأحاديث الصحيحة قد استفاضت عنه . فأتى إليه العباد ، كهزم بن حيان من البصرة ، ولكن الرجل يكره « الشهرة » (٢) ، « والعجب » . وحين يطلب منه هرم بن حيان الحديث يقول « إني لم أدرك النبي ﷺ ، ولم يكن لي معه صحبة ، ولكن قد رأيت من رأى ﷺ وغيره » . فالرجل إذن ممن أدرك عهد النبوة ووصل إلى الرسول خبر تبعده وزهده . ويقال إن بره بأمه منعه من السفر لرؤية الرسول - فقال : « أويس القرني خير التابعين بإحسان (٣) » . ثم أتى من القرنين إلى الكوفة ، واشتاق عمر وعلى لرؤيته . ووضعت الأسطورة ، وجعل منه الصوفية خضراً آخر .

أما عن وفاته ، فاختلف المؤرخون ، فبينما يذهب البعض أنه مات في إحدى الغزوات زمن عمر ، يذهب البعض الآخر أنه مع علي بن أبي طالب في صفين (٤) .

وإني لا أجد أيضاً في حياة هذا العابد من عباد الكوفة ظلالاً من آثار خارجية ، لا مسيحية ولا ثنوية . وليس في لبسه الصوف هنا صلة بمسوح الرهبان ، فقد كان لبس الصوف عادة الرعاة من العرب . أما نسبة الغوثية إليه والقطبية ، فقد صورت على سنوأل قصة قرآنية .

أما عن شيعيته المقتصدة ، فإننا نراها في اعتبار علي من بشره ، وبمقابلته من قبل الرسول . كما أن قصة استشهاده مع علي قد ترجح أيضاً صلواته بأل البيت . على أن الشيعة هنا - كما قلت - كانت سمة المسلمين جميعاً في ذلك العصر اللهم - إلا أهل الشام . ولم يكن من المستغرب أن يتجه هذا الأشعث

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ، وابن الجوزي صفة ج ٣ ص ٢٥٣ .

(٣) أبو نعيم حلية ٨٥ - ٨٧ وابن الجوزي صفة ج ٣ ص ٣٨٣ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٣٩ ، ٤٠ .

الأغبر ذو الطمرين إلى علي بن أبي طالب رباني هذه الأمة ، ليقف معه ويستشهد في حرب ضد الطليق ابن الطليق .

٢ - زيد وصعصعة بن صوحان : تلميذى سلمان :

وفى العراق - فى البصرة والكوفة معاً - أخذت الفكرة الروحية عامة مكانها الكبير على يد ابني صوحان ، زيد وصعصعة . وكان زيد وصعصعة تلميذين كبيرين لسلمان الفارسي . صاحباه وتلقيا عنه الكثير وعاشا معه فى المدائن وغيرها . فلا جرم أن كانا من وجوه أصحاب على بن أبى طالب فيما بعد . وقد كان زيد بن صوحان تلميذاً لسلمان كما قلنا - وقد ذكر السمعاني - صاحب الأنساب - أن زيدا كان يكنى بأبى سلمان ، بجانب كنيته الآخرين - أبى عبد الله وأبى عائشة . وقد تتلمذ زيد على سلمان - أثناء مقامه بالمدائن ولسنا هنا فى مجال عرض شيعية زيد بن صوحان ، ولا معارضته لعثمان ، ولكن يهنا - أن زعيم بنى عبد قيس هذا كان من رواد الحياة الروحية الأولى فى الإسلام . وقد ذكرت من قبل أنه أقام بالبصرة ، وبنى فيها أول دورة فى الإسلام . وكان هو وحلقته يتذكرون عهداً معيناً ، عهداً أول . هل هذا العهد هو ميثاق صوفى ، أو ميثاق غنوصى ، أخذه زيد عن سلمان إن صح أن سلمان كان غنوصياً أو أن فيه ملامح يزدان أو ملامح الإنسان الأول عند المانوية الشرقية فى المدائن . أو هو تفسير لآية العهد فى القرآن .

لم يكن زيد بن صوحان من غلاة الشيعة^(١) . ولم يكن فى هذا الوقت غلاة ، كان زيد حقاً من زعماء المعارضة لعثمان ، ولكن حين أمره عثمان بالتوجه إلى الشام ، فعل ، سمعاً وطاعة لولى الأمر^(٢) . ولكن صحبته لسلمان بلاشك ، وتعلمده عليه ، ملأه بحب على ، كما ملأه أيضاً بجانب روحى أخاذاً . ويذكر صاحب شذرات الذهب أنه « قتل فى صيفين سنة ست وثلاثين زيد بن صوحان من خواص على من الصلحاء الأتقياء^(٣) » . ومن العبث أن نحاول أن نجد فى حياة الرجل آثاراً مانوية أو مزدكية أو مسيحية ، إنما كان من كبار أصحاب على وخواصه ، ولم يكن على من السداجة بحيث يجعل من خواصه رجلاً لا يؤمن بالإسلام - كما تركه النبى - إيماناً كاملاً .

وكان صعصعة بن صوحان الشخصية الثانية من قبيلة بنى عبد قيس الشيعية التى بتضح فيها حياة الروح ، ولقد كان صعصعة كوفياً خالصاً . وقد شغل بتفسير القرآن ، واستمع إليه عمر بن الخطاب -

(١) السمعاني : الأنساب . . ورقة ٦٣ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ ص ٨٥ % ٨٦ .

(٣) ابن العباد : شذرات الذهب ج ١ ص ٤٤ .

وقال له : « أنت أنت مناه »^(١) . وكان من رؤساء المعارضة الشيعية لعثمان و معاوية . وقد سيره والى عثمان على الكوفة هو وبعض المعارضين إلى الشام لمقابلة معاوية . ويذهب ماسينيون إلى أن صعصعة بن صوحان هو أول من نادى في هذه المقابلة عام ٣٣ هـ - أمام معاوية بالنظرية الشيعية التي تجعل من إمامة آدم وإمامة علي « العين ، الصامت - شيئاً واحداً » ، فكان حينئذ أحد الأفراد الذين قدروا مقام علي في ذلك الحين^(٢) ، ثم يقول ماسينيون في موضع آخر « وفي كل جيل يتعرف أولئك الذين يتجسدون ، الممثلين للدراما الإنسانية لطاعة الله ، وأولئك الذين يعترفون بالإمام الشرعي ومن ينكرون ، دورة بعد دورة - وهذه النظرية القائلة بدوام التصميم التاريخي ، وبالعود الدوري للنماذج الكتابية ، وقد ظهرت منذ سنة ٣٣ هـ . حينما أعلن صعصعة بن صوحان أن الإمام - وقد كان في البدء آدم - يجب أن يتعرف آتئذ في علي^(٣) . وقد أشار ماسينيون إلى مصدره هو الطبرى . وقد رجعت إلى الطبرى ، إلى نفس النصوص التي استخدمها ماسينيون . فلم أجد أبداً ما يثبت فكرة ماسينيون لا من قريب ولا من بعيد . إن نصوص الطبرى تذكر أن معاوية بن سفيان كان يفتخر أمام وفد الكوفة - وفيهم صعصعة بأبيه أبى سفيان فقال « ولوليد أبو سفيان الناس ، لما ولد إلحازماً » فأجابه صعصعة « كذبت ، لقد ولد الناس من هو خير من أبيك ، فكان منهم المحسن والمسيء والبر والفاجر » ولم يذكر صعصعة أبداً إمامة علي ، ولم يقرر أبداً أن إمامة علي وإمامة آدم شيء واحد . بل لم يذكر علياً على الإطلاق . وما أعجب خيال ماسينيون .

وليس معنى هذا أننا ننكر على صعصعة الجانب الروحي فيه ، لقد كان رجلاً غارقاً في حياة الروح بدون أدنى شك . وأتانا نرى علياً في وقعة صفين يبعثه إلى معاوية ، حين منع جيش على الماء ، . . . وذهب صعصعة إلى معاوية ووعظه . ولكن أصحاب معاوية أصروا على منع جيش على من الرى . وقال عبد الله بن أبى السرح « امنهم الماء . . . منعمهم الله - يوم القيامة . فقال صعصعة « إنما يجتمع الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شرية الخمر »^(٤) . . . فالرجل إذن على إيمان مطلق بالإسلام ، في حقيقته وفي مظهره . ولم يرد عنه غنوصية أو معرفة بهذه النظرية الشيعية الغالية المتأخرة ، عودة النماذج الكتابية ، وقد كان لهذه النظرية أثر في التصوف الفلسفي - كما نعلم - ولكن لم يكن صعصعة بن صوحان من روادها الأوائل .

(١) الطبرى : تاريخ ج ١ ص ٢٩١٧ - ٢٩١٩ ، والاستيعاب حتى ص ١٩٧ ، وشخصيات قلقة في الإسلام ص ٢٩ .

(٢) بدوى : شخصيات قلقة ص ٢٩ .

(٣) ذكور بدوى : شخصيات قلقة ص ٣٦ .

(٤) نصر بن مزاحم المقرئ : وقعة صفين (تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون) ص ١٦ - ١٦١ .

ونحن نظفر عن صعصعة بن صوحان بغير في كتاب صوفى مشهور وهو قوت القلوب . وألاحظ أن من يورد هذا الأثر هو الشعبي : فقد ذكر صعصعة لابن أخيه زيد : أنا كنت أحب إلى أبيك منك ، وأنت أحب إلى من ابني . خصلتان أوصيك بهما ، فاحفظهما ، خالص المؤمن مخالفة ، وخالف الفاجر مخالفة ، فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن ، وإنه لحق عليك أن تحالض المؤمن^(١) . ويعتبر أبو طالب المكى كلام صعصعة من أرق الكلام في الأخوة في الله ، والصحة ، والمحبة للإخوان فيه .

٣- كميل بن زياد : صاحب الوصية الروحية :

وذهب على كما نعلم ، وبقى أصحابه الأولون ، في أحياء الكوفة ورحبائها وقد عمها السكون القتال ، يعيشون ذبل الشفاعة ، مفترشى الحياة ، أذلاء في نفوسهم . ولست أود أن أبحث الجانب الشيعى في هؤلاء ، وإنما أريد أن أتبع مشاركتهم في إقامة الحياة الروحية في الإسلام . وأرسل زياد بن أبيه حجر بن عدى وأصحابه من الكوفة إلى دمشق . وقتل معاوية حجراً وأصحابه ، في مقتلة اهترها العالم الإسلامى ، وحركت قلب أم المؤمنين عائشة ، ونحن نعلم أنها كانت في المعسكر المناهض لعلى . ولكن لم يمنعها هذا من أن تلوم معاوية . . . وقابل معاوية لومها باستخفاف . . . وساد الكوفة . . . بل العالم الإسلامى كله . . . الهدوء والخوف . . . وانقلب الكوفيون إلى العبادة وإلى الانزواء ولكن بدأ زياد بن أبيه وابنه بعده - عبيد الله - يأخذون الحناق على أصحاب على ، وما لبث هؤلاء أن قدموا أمثلة كبرى لتدعيم حياة الروح في الإسلام وما فيها من فداء على مسرح الكوفة ، والمشاركة فيها أكبر مشاركة - كما قلت . ومن أدق الأمثلة على هذه المشاركة ، مثال كميل بن زياد النجفى . ويذكر ابن حجر « أنه كان من رؤساء الشيعة . وذكره المدائنى في عباد أهل الكوفة »^(٢) . وقد دعاه صاحب ميزان الاعتدال « بصاحب على رضى الله عنه » واختلف المحدثون فيه فبينما يذهب ابن حبان أنه كان من المفرطين في على ، ممن يروى عنه العضلات ؛ منكر الحديث جداً تنقح روايته ولا يحتاج به ، نرى ابن سعد وابن معين يوثقانه^(٣) « ولعل العضلات التى كان يرويها عن على ، هى تلك اللمحات الإشرافية التى رواها الصوفية من بعد على لسان على ، مروية بواسطة كميل . ولقد أورد صاحب الحلية وصية على لكميل بن زياد^(٤) . وقد كان على يصحبه دائماً إلى الجبان وقد تكلمنا عن هذه الوصية حين عرضنا حياة على بن أبى طالب الروحية . بل نادى على - فيما يروى صاحب طرائق الحقائق - على

(٣) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٤١٥ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ١ ص ٧٩ - ٨٠ .

(١) أبو طالب الملى : قوت القلوب ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٢) ابن حجر : تهذيب ج ٨ ص ٤٤٧ - ٤٨٨ .

لسان كميل بن زياد بأدق التعبيرات الإشراقية «... الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة... . وأنها النور الذى يشرق من صبح الأزل ، فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره... لا جرم بعد ذلك أن أصبح كميل بن زياد من «رجال السلاسل الصوفية» ، وتتصل به سلسلة خرقه طريقة النور مجتبية في إيران . وبقيت أديته المشهورة بتلوها الشيعة في مجموعة أديتهم (١) . وقد انتهت حياة كميل بن زياد بشهادته على يد الحجاج . وقد كان الحجاج متعظماً لقتل أصحاب علي ، وقد قال للحجاج قبل مقتله «ولقد خبرني أمير المؤمنين أنك قاتلي» . وكان مقتله عام ٢١٨٨ .

٤- ميثم التمار :

وكان ميثم التمار من خواص الإمام علي . وكان أعجمياً . ويقال إنه كان عبداً لامرأة من بني أسد ، فاشتراه علي منها وأعتقه . وقد بشره علي بأنه سيموت مصلوباً . وعاش الرجل عيشة زهد وتنسك بعد وفاة صديقه وإمامه . وجاء عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة... أتى ميثم إليه وأمر بصلبه وقتله... . وحين رفعوه على خشبته ، أخذ يحدث الناس بفصائل علي وبني هاشم . فقيل لابن زياد : قد فضحككم هذا العبد ، قال : ألقوه . فكان أول من ألقم في الإسلام . فلما كان اليوم الثالث من صلبه ، طعن بالحرية ، فكبر ثم مات (٢) .

٥- رشيد المحجري : رشيد البلايا :

وكذلك كان رشيد المحجري ، وهو شخصية غامضة ذات أهمية كبرى في تاريخ التشيع الأول وفي تاريخ التصوف . أما عن مكانته في التشيع ، فقد ذهب مؤرخو الشيعة إلى أنه كان من وجوه أصحاب علي ، وأن الإمام علياً كان يدعوه برشيد البلايا . وكان - في رأى الشيعة - قد ألقى عليه علم البلايا والمنايا . فكان يلقي الرجل ويقول له : يا فلان بن فلان ، تموت ميتة كذا ، وأنت يا فلان - تقتل قتلة كذا ، فيكون الأمر كما قال . ومن الملاحظ أن الشيعة أرادت أن تضع مقامه بالنسبة لعلي ، كمقام حذيفة بن اليمان بالنسبة للنبي محمد ﷺ . فإذا كان قد ألقى إلى حذيفة علم المنافقين ، بواسطة الرسول . فقد ألقى إلى رشيد علم المنايا ، بواسطة علي .

ويذهب الشيعة أيضاً إلى أنه كان يتشكل في الصور المختلفة ، وأنه اختفى في عهد ولاية زياد بن

(١) الدكتور كامل مصطفى الشيبى : الصلة ص ٦٢ % ٢٧٤ .

(٢) البراقى : تاريخ الكوفة ص ٣٢٤ .

(٣) البراقى : تاريخ الكوفة ص ٢٩٨ .

أبيه ، فكان يدخل البيوت فلا يراه أحد ، بل يقبل على زياد نفسه في صورة صديق لزياد شامى ، بحيث يقول له هذا الصديق ، وقد خشى أول الأمر دخوله عليه « أما إذا كان عندك من العلم ، مثل ما أرى ، فاصنع ما بدا لك ، وأدخل علينا كيف شئت » . وقد صيغت قصة الصوفى المتأخر قضيب البان (المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ) على هذه الصورة ، فقد كان أيضاً يتشكل في الصور كيف يشاء .

وكان الإمام على قد ألقى إليه أنه سيقتل على يد دعوى بنى أمية . وقال له « يا رشيد : كيف صبرك متى أرسل إليك دعوى بنى أمية ، فقطع يديك ورجليك ولسانك » فقال رشيد « يا أمير المؤمنين آخر ذلك الجنة » فقال : « يا رشيد أنت معى في الدنيا الآخرة » . وحين أتى عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة دعا رشيداً وطلب منه البراءة من على ، وكان في استطاعة رشيد أن يتقى ، ولكن كان لابد له أن يحقق نبوءة الإمام ، فأبى أن يبرأ منه ، فقال : له ابن زياد « فبأى مية تموت » فقال له : أخبرنى خليلي أنك تدعونى إلى البراءة منه ، فلا أبرأ ، فتقدمنى وتقطع يدى ورجلى ولسانى . فقال : والله لأكذبن قوله . فقدموه فقطعوا يديه ورجليه وتركوا لسانه . فحملت ابنته قنوا أطراف يديه ورجليه . وقالت : يا أبنى : هل تجد ألماً مما أصابك . فقال : لا يا ابنتى - إلا كالرخام بين الناس . فلما احتملوه وأخرجوه من القصر : اجتمع الناس حوله ، فقال : ابترنى بصحيفة ودواة أكتب لكم ما يكون إلى يوم الساعة . وعلم بن زياد بالأمر ، فأرسل إليه الحجام ، حتى قطع لسانه . فمات ^(١) .

تلك هى القصة التى يذكرها الشيعة عن حياته وموته ، وهى تشبه إلى حد ما قصة الحلاج . وقد اعتبره بعض المؤرخين غنوصياً قائماً . ويذكرون أنه سمع علياً على المنبر يقول : دابة الأرض تأكل بغيها ، وتحدث باستها . فقال رشيد الهجرى : أشهد أنك تلك الدابة : فقال له على قولاً شديداً . ويذكر الشعبى أنه ذهب إليه ، فاستمع إليه يقول : أتينا الحسن بعد موت على . فقلنا : أدخلنا على أمير المؤمنين . فقال : إنه قد مات . قلنا لا : ولكنه حى ، يعرف الآن من تحت الدثار . قال إذا عرفتم هذا ، فادخلوا عليه ولا تهيجوه » . ويذكرون أيضاً أنه ذهب للحج بعد موت على ، فقال لأبدأه بأمر المؤمنين . فأقى بيت على فقال لإنسان على الباب : استأذن لى على أمير المؤمنين . قال : أوليس قد مات . قلت : قد مات فيكم : والله إنه ليتنفس الآن نفس الحى . قال : أما إذا عرفت سر آل محمد فادخل . فدخلت على أمير المؤمنين وأنبأنى بأشياء تكون . فهو إذن يؤمن بالرجعة . وبلغ الخبر زياداً فبعث إلى رشيد وقطع لسانه ، وقتله ^(٢) .

وسواء صحت رواية مؤرخى الشيعة في رشيد الهجرى أو رواية مؤرخى السنة ، فإن حياة رشيد

(١) البراقى : تاريخ الكوفة ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٢) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٥١ ، ٥٢ .

الهجرى وآرائه قد ألفت ظلها على التصوف فيما بعد . فالصوفية يذهبون إلى نسبة نوع العلم للدينى إلى « الشيخ » يعرف به أقدار الناس ومصائرهم ، كما أن فكرة حياة « الشيخ » بعد الموت ومناجاته لأتباعه فكرة مقررة لدى الكثيرين من الصوفية .

٦- أبو صالح ماهان الحنقى :

ولكن ما تلبس مشاركة الشيعة الأوائل في الحياة الروحية في الإسلام أن تظهر بصورة واضحة لدى شخصية زاهدة من شخصيات الكوفة وهى شخصية أبى صالح ماهان الحنقى . وبينما أهملت كتب التصوف السنى ذكر رشيد الهجرى وميثم التمار ، ولم تعتبرهما من رجال التصوف ، أفردت مكاناً لأبى صالح . وكان أبو صالح من خاصة أصحاب على أيضاً . وبعد وفاة على ، أخذ الرجل يقضى حياته فى العبادة « ولا يفترض التكبير والتسبيح والتهليل » وقد كان يقول « الحق ثقيل وابن آدم ضعيف والذكر ساعة بعد ساعة » وكان يعظ فيقول « أما يستحى أحدكم أن تكون دابته التى تركب ، وثوبه الذى يلبس ، أكثر ذكراً لله منه » وسئل عن أعمال القوم من السلف فقال « كانت أعمالهم قليلة ، وكانت سليمة^(١) . ويبدو أن الرجل كان يحس بما سيصيبه من ألم وصلب وقتل على يد الحجاج ، فكان يردد « ما أبلى ما قالت ابنتى ، أأعاقى فأشكر ، أو أبئلى فأصبر » . وكان الحجاج يفتش عن أصحاب على كما قلنا ، فيطلب منهم البراءة منه وسبه أو يقتل الشخص ، ويبدو أنه أبى . فأمر الحجاج به أن يصلب ، وحين رفع على خشبته ، كان يسبح ويهلل ويكبر .

وهنا يقف أبو صالح ماهان الحنقى موقفاً من أدق المواقف الروحية حقاً ، سعيده الحلاج فيما بعد . فقد اقترب منه أبو إسحق الشيبانى متفكراً وهو ينظر إليه ، فصاح ماهان فيه « تنح : يا ابن أخى لا تسأل عن هذا المقام » وسيردد الحلاج هذا فيما بعد - حين صلب وقطعت يداه . هذا أول مقامات التصوف . ويقرب منه عمار الدهنى مع غوغاء الناس ، فيصيح فيه ماهان « يا عمار أنت فيهم » فذهب عمار وتركه . واحتمل الرجل على خشبته القطع والموت صابراً^(٢) .

صورة تكاد تكون متشابهة ، لما حدث للحلاج فيما بعد . وقد قتل الحلاج لغنوصيته ، أما أبو صالح ماهان الحنقى ، فقد قتل لإخلاصه لآل بيت رسول الله .

هذه صورة من صور الحياة الروحية لدى وجوه أصحاب على ، شاركوا فى الحياة الروحية فى الإسلام أكبر مشاركة ، وقدموا فى طرقات الكوفة وأسواقها مثلاً علياً للفداء ، ودخلت هذه المثل كما

(١) أبو نعيم : حلية ج ٤ ص ٣٦٤ - ٣٦٧ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٤٠ .

قلت في أعماق الزهد ، ثم التصوف بمعنى الكلمة ، ولكن ما لبث التشيع أن تطور وافترق ، وأصبح هؤلاء المتفرقين سمات خاصة تميزه عن الآخر ، ولكن شارك الجميع ، كما سنرى في أعماق الحياة الروحية في الإسلام وبالتالي في الزهد والتصوف - ومن الملاحظ أن التشيع المعتدل أثر في التصوف المعتدل ، وأثر التشيع الغالي في التصوف الفلسفي الغنوصي - وينقدح التشيع المعتدل في الكوفة في طائفة التوايين ، كما يظهر في الزيود . . . وكان هاتين الطائفتين أثر كبير في التصوف المعتدل ذي النزعة السنية ، أما التشيع الغالي - فقد أثر في التصوف الفلسفي - كما سنرى بعد .

* * *

أما التشيع الإمامي ، بمعنى الكلمة ، وهو التشيع الذي أحاط بالأئمة وعباراتهم ، أو ما حملوا من عبارات - فلم يكن في الكوفة ، وإنما ظهر في المدينة ، ومن الأولى أن نعالجه حين نبحث في الحياة الروحية في مدارس الحجاز .

إن الحركة الشيعية الإمامية الوحيدة التي أثرت في مجرى الحياة الروحية في الإسلام - في الكوفة - وبالتالي - في الزهاد والصوفية هي حركة التوايين . كان هؤلاء التوايون من أصحاب الإمام علي وعلى رأسهم الصحابي سليمان بن صرد . . . وكانوا قد تعهدوا للحسين بنصرته ، فلما أتى إلى مشارف الكوفة خذلوه ، وقتل ابن بنت رسول الله وحيداً في الغلاة ، وانكفأ هؤلاء على العبادة والتبتل ، وعاشوا في التوبة - نهراً وليلاً ، ثم ما لبث أن تكونت أول جماعة روحية في الإسلام ، تستند على نص قرآني « فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلك خير لكم عند بارئكم . فتاب عليكم . إنه التواب الرحيم » وخرجوا إلى طرقات الكوفة ، وهم شيعة من البصرة والمدائن عانوا التجربة الروحية نفسها وهم جميعاً يرددون « أقلنا - ربنا - تفريطنا فقد تبنا » . ويعلق العلامة العراقي على هذه الحركة قائلاً « وتبين حركة التوايين مدى ما أثر قتل الحسين في نفوس المسلمين ، حتى وجدنا هذه الطائفة تخرج دون قيادة ودون طمع في ملك ودون تنظيم - لمجرد الانتحار والتكفير ببذل النفس^(١) » ونحن نعلم بعد ذلك أنهم قتلوا جميعاً في عين الوردية ، قبلوا الموت في هدوء واطمئنان - وراحة نفسية .

ولقد ذكرت من قبل - أنه كانت هناك حركة توايين أيضاً بين صوفية الكوفة من أهل السنة والمهم أن نلاحظ هنا أن حركة التوايين هذه - سواء في أوساط الشيعة أو أوساط السنة قد ارتبطت بآل البيت ، فتابت الخلفتان عن الحياة كلها . . . وانعكس هذا على من تلا هؤلاء من زهاد وصوفية . فكان مقام التوبة من أهم مقامات التصوف كما سنرى بعد .

(١) الدكتور كامل الشبي : الصلة . . ج ١ ص ١٠١ .

الفصل الخامس

التشيع الزيدى والحياة الروحية فى الإسلام

إن من الغرابة بمكان أن نقول : إنه انبثق عن التشيع الزيدى جانب روحى عاون على تدعيم الزهد ثم التصوف من بعده . إن مؤسس المذهب كان رجلاً من آل البيت ، اعتنق المذهب المعتزلى . ونحن نعلم أن المذهب المعتزلى مذهب عقل ، لا يؤمن بالجوانب الروحية ، بل هاجمها ، واعتبر العقل الجرد وحده مقياس الأشياء جميعاً . حقاً كان زيد بن على زاهداً كما كان المعتزلة ، ولكن لا نظفر منه بلمحات روحية أو اتجاه ذوق . ثم مات فى ملحمة كبرى فى طرقات الكوفة ، أعادت إلى أذهان المسلمين ملحمة جده الأكبر الحسين بن على . فهل كانت هذه الميتة سبباً فى إذكاء حياة روحية لدى الزيدود من أتباعه ، كما كانت سبباً فى اجتذاب الزهاد والعباد إلى مذهبه فسارعوا فى الالتفات حول كل حركة زيدية قامت بعد ذلك .

لقد رأى الدكتور الشيبى ، وهو يتحدث عن الصلات بين التشيع والتصوف « أن زيدا كان زاهداً شأن المتدينين المخلصين فى ذلك الوقت الذى انتشر فيه التصوف تعبيراً عن معارضة صامته إزاء ما فرضه سليمان بن عبد الملك المتوفى سنة ٩١ هـ وكذلك هشام بن الحكم (المتوفى سنة ١٢٥ هـ) من ليس الخبز » وكان زيد يذكر الله فيغشى عليه حتى يقول القائل : ما يرجع على الدنيا « وقد أدى هذا إلى أن أهل النسك كانوا لا يعدلون بزيد أحداً . . . ثم يرى الشيبى أن مجموعة من الزهاد التفوا حول زيد - كمنصور بن المعتمر الذى كان يدعو إلى الخروج مع زيد وسفيان الثورى الزاهد المشهور ، والزاهدان عبد الله بن عطاء وابن هرمز .

ويرى الشيبى أن الأئمة الزيديين - كانوا كزيد مجموعة من الزهاد المتقشفين بل كان منهم من يسمى بالصوفى كمحمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ، كما كان محمد بن جعفر الصادق يخرج إلى الصلاة بمكة فى سنة ٢٠٠ بماتى رجل من الجارودية وعليهم ثياب الصوف وسياء الخيزر ظاهر . . . وكان هناك نائر زيدى آخر يوصف بالصوفى ، وهو محمد بن القاسم لأنه كان يدمن لبس الثياب من الصوف الأبيض . ثم خرج ابن خالد الأحمر الزاهد المشهور مع إبراهيم بن

عبد الله بن الحسن في حركة زيدية عنيفة بالبصرة (١).

ولكن كان أهم زهاد الزيدية جميعاً الحسن بن صالح بن حبي وأخوه علي وأمهها . وقد احتل الحسن بن صالح بن حبي مكانه الكبير في كتب طبقات الصوفية في العالم الإسلامي ، بل نرى عالماً حنبلياً كابن الجوزي يؤرخ له . وقد تكلمت عن الحسن بن صالح - كزیدی - في كتابي « نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام الجزء الثاني » (٢) ولست في حاجة إلى عرض هذا الجانب من حياة الحسن بن صالح في هذا الكتاب ، وأشرت هناك في إيجاز إلى أنه عرف « بالعبادة والزهد » بل كان أكثر الناس إغراضاً عن « الرياسة » . ويذكر أن الحسن وأخاه علياً وأمهها كانوا يقضون الليل في العبادة ، وقد «جزءوا الليل ثلاثة أجزاء ، فكان على يقوم الثلث ويقوم الحسن الثلث ثم ينام وتقوم أمها الثلث ، فماتت أمها ، فجزءوا الليل بينها ، فكانا يقومان به ، حتى الصباح ، ثم مات علي ، فقام الحسن به كله » (٣) . كانت أسرة ابن حبي كلها تعيش إذن في التبتل والعبادة ، يتعاونون على العبادة بالليل لا ينامون ، وبالنهار لا يفطرون ، وكان يقال للحسن بالذات « حية الوادي » ويقصدون بهذا أنه لا ينام بالليل .

وعاش الحسن كما عاش أخوه ، عيشة تجرد وفقر ، وكانا يرفضان العطايا ، وكان الخليفة المهدي على استعداد لشراء الرجل بأى ثمن ، حتى يترك زيدته ، ولكنه أبى ، وكان يعيش متخفياً ، وكان يقول « ربما أصبحت ، وما عندي درهم ، وكأن الدنيا كلها قد صيرت لي ، وهي في كفي » وكان طفله يأتيه يطلب الطعام وليس لديه شيء ، فيعطه بشيء ، حتى يبيع خادمه غزل مولاته ، فيشترى شيئاً من الشعير ، تطحنه الخادم ، ثم تعجنه . وكان يردد على المقابر ، كعادة العباد ، فيغشى عليه - ودخل السوق مرة ، فرأى هذا يحيط وهذا يصنع ، رأى الناس في شغل عن ربهم بمعاشهم . فبكى (٤) . ثم قال لصاحبه : انظر إليهم يعللون حتى يأتيهم الموت » ويذكرنا هذا بموقف أبي يزيد البسطامي حين رأى الناس يتعللون بمعاشهم ، فاعتلى المئذنة ، وكبر عليهم أربعة . إنهم موتى في حياتهم ، فكبر عليهم تكبيرة الموت .

وقد ترك الحسن بن صالح كلمات ماثورة في أخلاق العباد « فتشنا الورع فلم نجده في شيء أقل منه في اللسان » ، « العمل بالحسنة قوة في البدن ونور في القلب ، وضوء في البصر ، والعمل بالسيئة ، وهن في البدن وظلمة في القلب وعمى في البصر » . . . ويرى أن « الليل والنهار يلبيان كل جديد ، ويقربان

(١) الدكتور الشبي : الصلة ج ١ ص ١٧٦ ، ١٨٦ .

(٢) النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج ٢ ص ١٩٢ / ١٩٤ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٧ ص ٣٢٨ ، وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٨٧ / ٨٨ .

(٤) أبو نعيم : المحبلة ج ٧ ص ٣٢٨ / ٣٢٩ .

كل بعيد ، وبأتيان بكل موعود ووعيد . . . ويقول النهار : يا ابن آدم : اغتسني فإنك لا تدري ، لعله يوم لا يوم لك بعدى ، ويقول له الليل مثل ذلك « وكان الفقه قد ازدهر في أيامه : ورأى الفقهاء يتراحمون على أبواب الأمراء فكان يقول « لا تفقه حتى لا تبالي في يد من كانت الدنيا . بل إن الشيطان ليستخدم هؤلاء الفقهاء موهاً لهم أنه يفتح لهم باب الخير ، ولكنه يريد باباً من أبواب السوء » .

ويعتلى الحسن بن صالح المثذثة لكي يؤذن ، فإذا به يصرخ ويبكي كما يبكي أصحاب أصل المصائب . . . بل يفشى عليه ، حتى يؤذن غيره . وقد كان الحسن بن صالح على صلوات كبرى بزهاد عصره ، بسفيان الثوري الذي كان الحسن يدعو بالشفاء ولكن سفيان قد كره فكرته في الخروج على الإمام الظالم ، وكان سفيان ينكرها برغم المسحة الزيدية التي لازمتها هو نفسه . ولكن صلواته الكبرى كانت بشيخ زهاد الشام أبي سليمان الداراني وكان يقول عنه « ما رأيت أحداً الخوف أظهر على وجهه والخشوع من الحسن بن صالح بن حبي ، قرأ ليلة « عم يتساءلون » ففشى عليه ، فلم يختمها حتى طلع الفجر (١) .

ولقد أثر الحسن بن صالح بن حبي في أحمد بن عيسى بن زيد ، وقد عاش أحمد بن عيسى إلى خلافة الرشيد ، « وتنسك وتزهد » وكان الزيدية يجتمعون إليه ، ونمى الأمر إلى الرشيد فأخذته وجسه ، ولكنه « هرب من جسسه وتواري » (٢) .

كانت الزيدية إذن حركة زهد وتقشف ، وقد تكون « الزهد » كمصطلح حينئذ ، وكان له مراسم وطقوسه ، فهل أثر الزهد الزيدى فيه . لا أرى هذا على الإطلاق ، لقد كان زهد الزيدية يشبه زهد الخوارج ، تقشف وورع ، وإغراق في العبادة ، وفيما خلا الحسن بن صالح بن حبي لا نظفر منهم أبداً بلمحات روحية أو بإشراقه قلبية ، كان الاعتزال العقلي يحكمه ، وفكرة الخروج تسيطر عليه . . . وما أبعد هذا عن الزهد كمصطلح وعن الزهاد كمجموعة . .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٧ ص ٣٢٨ .

(٢) النشار : نشأة الفكر ج ٢ ص ١٨٣ .

الفصل السادس

الشيعة الغالي في الكوفة وأثره في الزهد والتصوف

لقد حاولت من قبل - في الجزء الثاني من نشأة الفكر - أن أكشف عن نشأة الشيعة الغالي ومداه وتطوره ، وانتهيت إلى أن هذا الشيعة الغالي كان نوعاً من الحب ، غلا فيه أصحابه ، حين رأوا ، عثرة أهل البيت يتساقطون واحداً بعد واحد ، تحت سيوف الطغاة من بني أمية ، ورأوا ذل الأئمة ، وانكسار قلوبهم ، يعيشون في انكسار وشظف من العيش في جنبات المدينة ، فقدموا لهم الحب الغالي ، وأحاطوهم بالأسطورة . . . هكذا بدأ الشيعة الغالي ، بابا ولجج فيه أحبة أهل البيت ، ثم ولجج فيه - وكانت فرصة نادرة - الضاغنون على الإسلام من فرس ويهود ، وانقلب وتطور إلى أكبر مؤامرة على العقيدة نفسها - سواء أكانت سنية أم شيعية . وسأحاول أن ألمس هنا أثر هذا الغلو في الزهد والتصوف ، وقد كان هذا الأثر - كما سنرى - كبيراً .

لقد نشأ الشيعة الغالي - كما نعلم - وفي أول ظهوره - لدى امرأتين من نساء الكوفة هما هند بنت المتكلفة الناعطية وليلي بنت قامة الزنية الناعطية . وبينما يسخر الجاحظ من ليلي الناعطية في كتاب الحيوان ، ويعتبرها - في محاولة مضحكة - من البخلاء ، تراه في البيان والتبيين يعتبرها من الناسكات والزاهدات فيقول في باب ذكر النساك والزهاد « ومن نساء الغالية ، ليلي الناعطية والصدوف وهند ^(١) ، وقد بينت في نشأة الفكر - لدى الصوفية فيما بعد - فكرة «الحزقة» .

وقد كانت هند وليلي من النساء الكيماويات . وقد قيل : إن البداء قد ظهر في بيتها ، ونحن نتساءل: هل كان للبداء من أثر لدى الصوفية ؟ . ولا أرى هذا أبداً .

غير أن فكرة المهدي قد ظهرت - أول ما ظهرت لدى الكيماوية من أتباع محمد بن الحنفية . ولفكرة المهدي عامة أثر كبير لدى طوائف الصوفية جميعاً أخذت صوراً مختلفة ، وتشوف لها الصوفية جميعاً . ولكننا نخطو خطوة حاسمة فنقول : هل يمكن أن تكون فكرة المهدي أساس فكرة الغوث ؟ . هل صيغت فكرة الغوث بما لديه من قوة على التخفي والانتقال على صورة المهدي المحتفي الذي يظهر لكل البشر من أتباعه بين الحين والحين ، هل أخذت فكرة المهدي من قصة الخضر القرآني وصيغت

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ص ١ ج ٢٣٢ ، وانظر : نشأة الفكر ج ٢ ص ٧٥ .

على مثاله ، وأخذ الصوفية فكرة الغوث من المصدرين : المصدر القرآني الأصيل في قصة الخضر ، والمصدر الشيعي التابع للمصدر القرآني في فكرة المهدي . إن المسألة تحتاج إلى بحث أوسع . غير أن الدكتور كامل الشيبى يرى أن الفكرة ظهرت في الحلاج - فأصبغت عليه المهديّة ، ولكن هنا أيضاً مجال للتساؤل : هل كان الحلاج - حين ادعى المهديّة أو حين نسبت إليه « المهدي » يتكلم باسم التصوف أو باسم التشيع ، إن صوفية عصره - وفي مدرسة بغداد بالذات - لم يدعوا المهديّة أبداً ، وكان لهم الأتباع العديدون ، فهل كان الحلاج - يختلف عنهم - في أنه كان إسماعيلياً ، أو شيعياً إمامياً ، ويلاحظ الدكتور كامل الشيبى نفسه أن الحلاج كان معاصراً لأحد وكلاء المهدي الشيعي وأنه كان يدعى بابيته (١) .

وظهرت فكرة الرجعة في هذه الأثناء . فهل أثرت هذه الفكرة أيضاً في نظريات الصوفية ؟ . لا أجد لها أثراً بعد - وإن كان الشيبى يرى أن الرجعة قد دخلت التصوف بكل تفاصيلها حتى ما يتصل منها بالقيامة الصغرى والقيامة الكبرى . ووضع « ابن عربى » مثلاً لها في تفسيره للحاقة « هي الساعة الواجبة الوقوع التى لا ريب فيها . إن أريد بها القيامة الصغرى . ويسمى النبأ العظيم القيامة الكبرى (٢) . غير أنه ينبغي أن نأخذ المسائل بمحذر ، إن ابن عربى يستخدم كل مصطلح شيعي وغير شيعي في تأييد نظرية وحدة الوجود التى لونت مذهبه إن في تفصيلاته وإن في كلياته . ثم إن القيامة الصغرى والقيامة الكبرى متصلتان بعقيدة الغيبة الشيعية الاثنى عشرية أكثر من اتصالها بعقيدة الرجعة عامة عند الكيسانية . وإننى لا أجد أبداً عقيدة الرجعة بمعناها العام أو بمعناها الكيمائى لدى الصوفية إطلاقاً .

وأنقل الآن إلى عقائد الغلاة الأخرى :

(١) الإمامة : لقد أثرت فكرة الإمام في شكلها الغالى المنبثق من الكوفة ، أو شكلها المعتدل المنبثق من المدينة في التصوف الفلسفى بلاشك - وذلك منذ القرن الثالث الهجرى . استخدم الغلاة والمعتدلون مصطلح الإمام ولم يستخدمه الصوفية ، بل استخدموا كلمة « الولى » ولم تنسب كلمة « الولى » إلى واحد من الأئمة ، اللهم إلا مرة واحدة نسبت فيها الكلمة إلى الإمام الأول على ، فذكر أنه « على ولى الله » ثم استخدمت كلمة الولاية منسوبة إلى الأئمة منذ القرن السادس . ولكن الشيعة الغالية في الكوفة وكذلك الشيعة الإمامية في المدينة نسبت إلى الإمام عنصرين : عنصراً كوزمولوجياً أى وجودياً ، وعنصراً إستمولوجياً ، أى عنصراً معرفياً . وقد انتقلت هذه النسبة إلى التصوف الفلسفى

(١) الدكتور الشيبى : الصلة : ج ١ ص ٢٠ .

(٢) الدكتور الشيبى : ج ١ ص ١٢٠ .

منذ القرن الثالث الهجري . فنسب إلى شيوخ الصوفية ، وإلى ما أسماه بقطب الغوث الجانين أيضاً ، الكوزمولوجي والأبستمولوجي . فكما وجد الكون للإمام ، وإليه تدبيره وتصريفه ، كذلك الأمر بالنسبة للشيخ أوللقطب ونشأة فكرة النور المحمدي حول الإمام جعفر الصادق ، ثم استخدمها الغلاة أشنع استخدام ، وانتقلت إلى التصوف .

وبينما نسب للإمام المعرفة ، واعتبر مصدر العلم في الوجود ، فكذلك نسب للشيخ المعرفة . حقاً : إن معرفة الإمام معرفة متوارثة ، متلقاة من الإمام الذي سبقه ، ولكن معرفة الشيخ لدنية ، من الله إلقاء وانقداحاً ، إن الأولى يصل إليها الإمام بالوصية ، والثانية يصل إليها الشيخ بالاجتهاد والاعمال . ولكن المذهبين ، الصوفي والشيخي ينسبان للشيخ والإمام : نفس العلم .

وهنا نأتى إلى طبيعة العلم عند الاثنيين . فالعلم الصوفي سرى لا يطلعه الشيخ إلا لمريديه ، وقد سبقهم الغلاة في هذا . وبينما تذهب الإمامية إلى أن هذا العلم خاص بالإمام ، ذهب الغلاة إلى أن هذا العلم « ممكن » أيضاً لأتباع الإمام . ولقد أدى هذا إلى عملية « رفع » كثير من هؤلاء الغلاة إلى مقام الإمام نفسه . وبهذا خرجوا على الطبيعة الأبستمولوجية للإمام ، ولم يعد خاصة به . ولهذا أعلن البعض منهم فكرة « الاسم الأعظم » وأن من عرف هذا الاسم ، أحيأ وأمات (١) .

ومن العجب أن تدخل فكرة الاسم الأعظم في عقائد الصوفية ، وما زالت حتى الآن . ومن أوائل من نسب إليهم فكرة الاسم الأعظم بين الصوفية هو إبراهيم بن أدهم (المتوفى سنة ١٦٢) ، وكانت الوسيلة لدى الغلاة في معرفة الاسم الأعظم هو معرفة السحر والثيرنجات (٢) ، ثم حاول البعض منهم معرفة علوم الصنعة ، وقد نسبت علوم الصنعة إلى مجموعة من الأفراد أطلق عليهم اسم الصوفي - ومن الأمثلة على هذا جابر بن حيان الكيمائي ، فقد عرف باسم جابر بن حيان الصوفي ، كما كان الصوفي ذو النون المصري على معرفة أيضاً بالطلاسم والثيرنجات والسحر والتنجيم .

وإننا نعلم أن الشيعة - غلاة ومعتدلة - وضعوا المبدأ المشهور « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » وأثر هذا في الصوفية في نظرية الشيخ والمريد « وأنه من لا شيخ له ، لا دين له » . وقدم الغلاة من الشيعة فكرة التأويل ، وقد سبقهم إليها الشيعة المعتدلة ، ولكنهم تغالوا فيها ، ورأوا أن للآيات باطناً لا يعلمه سوى الإمام وخاصته . ودخلت الكيبالا اليهودية في عقائدهم ، ففسروا الآيات القرآنية في ضوء منهج القبالة . وسرى الصوفية الفلسفية يفعلون هذا وبخاصة الحلّاج . أعلنوا أن للآيات ظاهراً وباطناً . وأخذوا يفسرون هذا الباطن - كما يحلو لهم مذهبيهم الفلسفي . ودخلت

(١) النشار : نشأة الفكر ج ٢ ص ٩٤ و ٩٦ .

(٢) ابن تيمية : عيون الاخبار ج ٢ ص ١٤٩ .

الإسرائيليات عامة في النظريات الغالية ، كما دخلت الغنوصات وانتقلت إلى التصوف الفلسفي . ثم أتى إلى قصة فكرة المعراج . ونحن نعلم أن القرآن قرر معراجاً خاصاً للرسول محمد ﷺ ، ولكن سرعان ما يعلن أبو منصور العجلي أنه عرج به إلى السماء ، وأن الله مسح على رأسه ، وقال له بالسريانية : « أي بني - انزل فبلغ عني » . وانتقلت الفكرة للصوفية ، فأعلنوا عن معراج للنفس . وإن من الواضح أن معتدلة الصوفية قرروا أن هذا المعراج هو تصفية نفسية أخلاقية ، بينما ذهب أصحاب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود إلى نوع من المعراج يختلف أشد الاختلاف عن الصورة القرآنية للمعراج ويقرب من الصورة الشيعية الغالية .

ولقد كان سمة الغلاة أنهم فيما يقول المؤرخون «نمساوا بالزهد وأظهروا التقشف» بحيث يقول ابن الأثير «إنهم تعلموا الشعبذة والتبرنججات والنجوم والكيمياء فهم يمتالون على كل قوم بما ينفق عليهم ، وعلى العامة يظهرون الزهد (١) » . ويذكر ابن حجر أن المغيرة تعلم السحر وكان ساحراً (٢) . وكان سبباً وصاحب تبرنججات (٣) . بل إن عبد الله بن معاوية نفسه كان يظهر الزهد ويلبس الصوف . فغلاة الشيعة إذن كانوا من أوائل من لبسوا الصوف ، وأظهروا الترهده .

أما بعد : فإن الصلات بين التشيع الغالي في الكوفة وبين التصوف الفلسفي وثيقة إلى حد كبير ، وبخاصة حين ظهر أبو الخطاب الأسدي ، وتلته فرق الإسماعيلية ، ودخلت فكرة الإمام والوصفاء والتقباه والحجج وانعكست إلى حد كبير على فكرة الغوث والأقطاب والأبدال عن الصوفية الفلاسفة . ولقد وضع العلامة العراقي الدكتور كامل الشبيبي هذه الصلات في كتابيه الممتازين « الصلة بين التصوف والتشيع » والفكر الشيعي والتزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري . ولكنني أود أن أذكر أن هناك دائماً كما سنرى فيما بعد - تصوفاً معتدلاً وتصوفاً غالباً . التصوف الأول - يستند على القرآن والسنة وسيرة صحابة رسول الله ﷺ من جهة ، وأئمة آل البيت من جهة أخرى ، وسنرى ، أن هذا التصوف كان بداية لعلم نفس الإرادة ولعلم أخلاقي . والتصوف الثاني - هو التصوف الغالي أو الفلسفي ، وقد اتخذ كل مادة فلسفية وغير فلسفية وتأثر بالتشيع الغالي ، كما تأثر بالقبالا اليهودية وبالمسيحية وبالمذاهب الغنوصية شرقية وغربية . وبينما صب الأول تباره في الغزالي ، صب الآخر مستقعاته في محيي الدين بن عربي ، والتصوف الإشرافي الإيراني ممثلاً في السهروردي المقتول ومدرسته .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١ .

(٢) ابن حجر : لسان الميزان ج ١ ص ٧٥ - ٧٨ .

(٣) الطبري : ج ٣ ص ١٤٩ .

الفصل السابع

ظهور كلمة الصوفى كمصطلح في الكوفة

ظهرت كلمة الزهد - كما رأينا - كمصطلح - في الكوفة ، ودارت بالذات حول سفيان الثوري ، وأتباعه من بعده ، ثم انتشرت في العالم الإسلامي وسما على مجموعات العباد ، الذين ينضون تحت لواء شيخ من المعاصرين لسفيان كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وغيرها . وكان من سمات هؤلاء الزهاد - إجمالاً - ليس الصوف ، وقد رأينا كيف لبس بعض عباد البصرة الصوف ، ونهاهم المشايخ عن هذا إظهاراً للشهرة ، كما لبس فرقد السبخى الصوف ، ونهى عنه أيضاً بأنه تشبه بالنصارى . ونهى سفيان الثوري الإمام جعفر الصادق للبه الخبز ، فأراه الصوف تحت الخبز ، حتى يتجنب الشهرة . ولكن ما لبثت كلمة الصوفى ، والتصوف ، أن أطلقت على مجموعة العباد والزهاد : رواد الحياة الروحية في الإسلام .

وقد شغل الباحثون بالبحث في أصل الكلمة ، وقد تكلمنا عن مختلف الآراء في أصلها في الفصول الأولى من هذا الكتاب . ثم شغلوا أيضاً بتوقيت ظهورها ، وعلى من أطلقت في أول الأمر ، وقد رأينا الكلمة أطلقت على عدد من العباد في البصرة والكوفة ، ولكن المهم أن نبين متى أطلقت كمصطلح على فرد أو أفراد ، ثم جمع هؤلاء الأفراد ارتباط معين ، أو جماعة معينة . ويرى بعض الباحثين أيضاً أن الكوفة كانت منشأ كلمة التصوف كمصطلح . ويرى الدكتور كامل الشيبى بأن « الباحثين مختلفون في من هو أول من تسمى بالصوفى ، وتدور أخبارهم في هذا الشأن حول ثلاثة من الزهاد الكوفيين هم جابر بن حيان وأبو هاشم الصوفى وعبدك الصوفى (١) » ولست أرى هذا ، فقد أطلق الاسم - كما قلت - على عدد كبير من العباد من قبل . ولكن المشكلة هل أطلق على هؤلاء الثلاثة بمعنى خاص ، هو طريق التصفية بما فيه من مقامات وأحوال ، وانباتق النظريات ، بالإضافة إلى الطريق العملى - وهو الزهد . أليس من الأولى أن نضع المشكلة فيما يأتى :

إن الكلمة أطلقت أول الأمر - فيما يرجح - كمصطلح على طوائف ثلاث :

الطائفة الأولى : هي طائفة أهل الصنعة ، والصنعة هي معرفة الكيمياء والسحر والطلاسم ، ويمثل

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ص ٢٨٦ .

هذه الطائفة - جابر بن حيان .

الطائفة الثانية : هي طائفة الزنادقة ، وكان الزنادقة يظهرون التقشف والزهد ، ويعيش البعض منهم معيشة نباتية ، فيمتنعون عن أكل الحيوان .. إلخ .
الطائفة الثالثة : هي طائفة سنية ، اتخذت الصوف علماً ووسماً لها ، وسميت هذه الطائفة - تبعاً لهذا - باسم الصوفية ، ويمثلها أبو هاشم الصوفي .
وسنلقى نظرة عامة على الطوائف الثلاث :

١- الطائفة الأولى : طائفة أهل الصنعة :

مصطلح الصوف والكيميائيون :

لقد رأينا أن الغلاة من الشيعة كانوا يستخدمون السحر والطلسمات والتبرنجات ، ويحاولون أن يموهوا على العوام بكل هذا . وقيل إن البعض تعلموا من اليهود وغير اليهود . وكان لابد لهؤلاء الغلاة - وهم يموهون بهذه الأعمال شبه الحارقة أن يظهروا للعوام « التزهّد والتقشف وليس الصوف » . ونحن نعلم أن السحرة منذ عهد مبكر في تاريخ الإنسانية ، كانوا يقومون قبل مزاولته سحرهم بأنواع من الطقوس والتجرد ومحاولة الاتصال بعالم الروح وبالروحانيات . . . إلخ . ومن ثم ورد اسم جابر بن حيان الكيميائي موسوماً بكلمة « صوفى » بل يذهب بعض الباحثين إلى أن جابراً كان أول من تسمى باسم صوفى . أما اسم جابر الكامل فهو أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الطرسوسى الكوفى ، ولكنه عرف باسم الصوفى . ويذكر ابن النديم - الحراسانى - (١) . أما القفطى فيذكر « جابر بن حيان الكوفى - كان متقدماً فى العلوم الطبيعية ، بارعاً منها فى صناعة الكيمياء ، وله فيها تأليف كثيرة ومصنفات مشهورة ، وكان مع هذا مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقلداً للعلم الباطن ، وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام ، كالحارث بن أسد المحاسنى ، وسهل بن عبد الله التستري ونظرائهم . . . وذكر محمد بن سعيد المرقسطى المعروف بابن المشاط الاضطرابى الأندلسى أنه رأى لجابر بن حيان بمدينة مصر تأليفاً فى عمل الاضطراب يتضمن ألف مسألة لا نظير لها (٢) » . أما ابن خلدون فيوضح لنا حقيقة الرجل توضيحاً ، لم ينتبه إليه الباحثون ، فهو يذكر « ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة فى هذه الملة ، فتصفح كتب القوم ، واستخرج الصناعة ، وغاص فى زبدتها واستخرجها ، ووضع فيها غيرها من التأليف ، وأكثر الكلام فيها ، وفى صناعة السيمياء لأنها من توابعها ، لأن إحالة

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ .

(٢) القفطى : أخبار الحكماء ص .

الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية ، لا بالصناعة العملية ، فهو من قبيل السحر ، كما نذكره في موضعه (١) .

إذن كان جابر بن حيان في أول أمره ساحراً ، وكان من سمات السحر التحلي بقوة نفسية ، واستعداد روي معين ، والنص واضح في أن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية . . . وكان السحر منتشراً في الكوفة ، وكان المغيرة بن سعيد البجلي (المتوفى عام ١١٩ هـ) من غلاة الشيعة يدعى السحر وكان ساحراً . بل يذكر الأعمش المحدث عنه أنه كان يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور ويقول ابن قتيبة إنه كان صاحب نيرنجيات ، وأنه تعلم السحر من يهودية تعيش بالكوفة (٢) . . . ويذكر ابن قتيبة أن الغلاة « تعلموا الشعبة والنيرنجيات والنجوم والكيمياء - فهم يحتالون على كل قوم ، بما يتفق عليهم ، وعلى العامة بإظهار الزهد » (٣) .

يتبين لنا من هذا كله أن السحر كان منتشراً في أوساط الكوفة ، فإذا صح أن ميلاد جابر بن حيان كان في حدود (١٢٠ هـ) فإننا نستنتج ببساطة أنه كان يعيش في وسط ملء بالسحر ، انتشر فيه ، واستخدمه زعماء الغلاة للتصويه على العامة ، ولنشر آرائهم ، وكان من طبيعة مزاولة السحر القيام بشعائر وطقوس ، وتصفية النفس والتزهد . ومن العجب أن يأتي مسلمة بن أحمد المجرطي - إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات - فيكتب كتاباً فيها يسميه « غاية الحكيم » والحكيم ترجمة للكلمة اليونانية « سوفي » فهل كلمة صوفي التي نسبت إلى الساحر الأول « جابر بن حيان » هي صوفي اليونانية ؟ ثم أشبهت السين فصارت صاداً ، كما يذهب البيروني من الأقدمين والبعض من المحدثين : لا أعتقد هذا . وإنما أعتقد أن جابر بن حيان لبس الصوف تزهداً ، وكان الصوف لباس مجموعة الصوفية من المتزهدين ، وكان لا بد أن يفعل هذا أمام العامة . . . ثم لا يقدر هذا في أن الكلمة أطلقت فيما بعد على مجموعة الصوفية ، سواء أكانوا من أهل السنة أم من الصوفية الغنوصية . ويختلف الأولون عن الآخرين بأن صوفية أهل السنة يؤثرون في أحوال العالم بكراماتهم ، لا من لدن نفسه ولا بقوته النفسية وإيماداد الأرواح الخفية من الشياطين . ويعبر ابن خلدون عن هذا تعبيراً دقيقاً فيقول « وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً في أحوال العالم ، وليس معدوداً من جنس السحر ، وإنما هو بالإمداد الإلهي ، لأن طريقتهم ومحلهم من آثار النبوة ، ولهم في المدد الإلهي حفظ على قدر حالهم وإيمانهم ، وتمسكهم بكلمة الله ، وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر ، لا يأتيها ، لأنه متقيد

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ٤٩٧ .

(٢) النشار : نشأة الفكر الفلسفي الجزء الثاني ص ٩٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ١٥١ .

فيما يأتيه ، يذره للأمر الإلهي ، فلا يقع لهم فيه إلا بإذن إلا يأتونه بوجه ، ومن أتاه منهم ، فقد عدل عن طريق الحق ، وربما سلب حاله (١) .

هل توقف جابر بن حيان عند السحر ، فكان فقط كبير « السحرة » يبدو أنه انتقل إلى علم قريب من السحر ، وهو الكيمياء أو علم الصنعة ، وكانت الصنعة شغل هؤلاء الذين حرّموا الجاد والحكم والمنصب ، فكان لا بد أن تنتشر في أعماق الكوفة أيضاً ، باحثين عن الأكسير ، ويعرف ابن خلدون هذا العلم بأنه « علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك ، فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها . ولعلمهم يعثرون على المادة المستمدة لذلك ، حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات ، فضلاً عن المعادن ، ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل ، مثل حل الأجرام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس ، وإمهاء الصلب بالقهر والصلابة ، وأمثال ذلك ، وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الأكسير . وأنه يلقي منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس ، بعد أن يحمي النار ، فيعود ذهباً إبريزاً ويكون عن ذلك الأكسير إذا ألغزوا في اصطلاحاتهم « بالروح » وعن الجسم الذي يلقي عليه « بالجسد » .

ولقد نقلت النص كاملاً لكي يتبين للقارئ حقيقة هذا العلم الذي انتشر في العالم الإسلامي ، والذي شغل به الناس جميعاً حتى إن بعض المؤرخين يذكرون خطأً أن الإمامين الغزالي وفخر الدين الرازي قد شغلا به . على أن ابن خلدون يرى أن إمام المدونين في هذا العلم هو جابر بن حيان حتى إنه يختص به ، فيسمون علم الصنعة وعلم الكيمياء باسم « علم جابر » ويذكر أن له منها سبعين رسالة ، كلها شبيهة بالألغاز ، وأنه لا يستطيع أحد أن يفتح ما أغلق منها ، سوى من قرأها كلها .

ثم يذكر ابن خلدون أن مسلمة المجريطي ، من حكماء الأندلس ، (القرن الثالث الهجري) كتاب فيها أيضاً كتابه الذي ساه رتبة الحكيم أو جعله قريباً لكتابه الآخر في السحر والطلدات والذي قلنا من قبل إنه ساه غاية الحكيم . ويذكر ابن خلدون أن مسلمة يقول « إن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ، ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة (٢) .

ومن العجيب أيضاً أن مسلمة يستخدم أيضاً في هذا الكتاب كلمة الحكيم ، والحكمة . وقد قدم لنا ابن خلدون رسالة كتبها أبو بكر بن بشر بن أبي السمع وكلاهما من تلاميذ مسلمة ، وتشرح الرسالة

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ٥٠٢ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .

حقيقة هذه « الصنعة » ويعلق ابن خلدون على الرسالة « والذي يجب أن يعتقد في أمر الكيمياء وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرف في عالم الطبيعة ، إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة ، أو من نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة ، وأما الكرامة فظاهرة ، وأما السحر ، فلأن الساحر كما ثبت في إمكان تحقيقه يقلب الأعيان المادية بقوته السحرية ، ولا بد له مع ذلك من مادة يقع فعله السحري فيها ، كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب ! ، ولعل من نوع الكيمياء الأول - كيمياء الخير - كيمياء السعادة للغزالي ، ومن النوع الثاني - كيمياء جابر بن حيان . وابن خلدون يذهب إلى هذا ، وهو هنا ينسب كلمة الحكيم إلى جابر فيقول « والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم ، إنما نحووا هذا المنحى ، ولهذا كان كلامهم فيه ألغاز حذرا عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه ، لا أن ذلك يرجع إلى الضنائة بها ، كما هورأى من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك » ويوجه ابن خلدون أنظارنا إلى أن مسلمة سمي كتابه في الصنعة والكيمياء برتبة الحكيم ، بينما سمي كتابه في السحر والطلسمات بغاية الحكيم ، والغاية أعم ، والرتبة أخص . « إن مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية » ولذلك يقرر ابن خلدون - إن مدارك هذا الأمر ليس من العلوم الطبيعية (١) .

ولست أخوض هنا - كما قلت - في علم الصنعة ، وإنما أود فقط أن أشير إلى أنها ارتبطت هي والسحر والطلسم والنيرنجيات بأشخاص أعلنوا « التزهة ولسوا الصوف » وليس هناك من حاجة إلى إنكار وجود جابر ابن حيان كشخصية تاريخية حقيقية . ولقد تنبه إلى الشك في حقيقته وهو يورخ له مؤرخ العلم العربي القديم « ابن النديم » ، فقال : « هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي - المعروف بالصوفي » ثم يذكر اختلاف الناس في أمره ، فالشيعة تدعى أنه من كبارهم وأحد الأبواب ، وأنه كان صاحب جعفر الصادق ، وأنه كان من أهل الكوفة ، بينما يدعى الفلاسفة أنه كان منهم ، وأنه كتب في الفلسفة والمنطق ، وترك فيها مصنفات .

وزعم أهل صناعة الذهب والفضة « أن الرياسة انتهت إليه في عصره ، وأن أمره كان مكتوماً » وزعموا أنه كان يتنقل في البلاد لا يستقر به بلد خوفاً على نفسه من السلطان ، ثم إنه كان في جملة البرامكة ومنقطعاً إليهم ، ومتحققاً بجعفر بن يحيى . وأن من ذكر أن سيده هو جعفر إنما عنى البرمكي لا الصادق . ويذكر ابن النديم أيضاً أن بعض الثقات ممن كان يتعاطى الصنعة يقرر أنه كان يتزل في شارع باب الشام في درب يعرف بدرب الذهب ، وأن أكثر مقام جابر إنما كان بالكوفة ، لطيب هوائها ، وأنه وجد في بيته بعد زمن « هاون به ذهب » ثم يذكر ابن أصيبعة الرأي الآخر الذي ينكر

وجود جابر بن حيان كحقيقة تاريخية فيقول : « ذهب جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين ، إلى أن هذا الرجل ، يعنى جابر ، لا أصل له ولا حقيقة » وقال البعض الآخرون ما كتب كل هذه الكتب ، وإن كان له حقيقة إلا كتاب الرحمة . وإن بقية الكتب إنما صنفها غيره ونخله إياها . ويرد ابن النديم على هذا منكرًا « وأنا أقول إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي على ألبي ورقة ، يتعب قريحته وفكره بإخراجه ، ويتعب يده وجسمه بنسخه ، ثم ينخله لغيره ، إما موجوداً وإما معدوماً . ضرب من الجهل ، وإن ذلك لا يستمر على أحد . . . وأى فائدة في هذا ، وأى عائدة » ثم يقرر أن « الرجل له حقيقة » وأمره أظهر وأشهر ، ومصنفاته أعظم وأكثر ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة وكتب في معان شتى من العلوم . . . ثم يذكر أن الرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة . قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان (١) « حقاً إن ابن النديم لا يعطى تعليلاً لنسبة كلمة صوفى إلى جابر بن حيان ، وبالتالي إلى صلة الكيمائيين بالتصوف ، ولكنه عرض الآراء المختلفة التي نستطيع بقليل من النقد الخارجي والداخلي لها أن نتبين حقيقة الرجل .

لقد كان الرجل من الدعاة المكتومين الذين يتقلون في البلاد - في العهد الأموي - خوفاً من السلطان . وهنا نتساءل : إلى أي الدعاة المكتومين هؤلاء كان ينتسب جابر بن حيان ؟ كان أهم الدعاة المكتومين في هذا العصر في العراق - أي الكوفة - هو أبا ميسرة أبا رباح النبال مولى الأزدي وكبير دعاة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية وصديقه وتابعه . ونحن نعلم أن جابر بن حيان لقب أيضاً بالأزدى - فهو أيضاً مولى من موالى الأزدي . فكانت أسرة جابر بن حيان إذن من الأبي الهاشمية ، وكان الغنوص يستشرى في هذه الطائفة ويعتصرها اعتصاراً ، وفي الوصية الغنوصية الغربية التي لفظ بها أبو هاشم حين موته لمحمد بن علي العباسي ، نراه يطلب منه « ثم هذا الرجل ميسرة ، فاجعله صاحبك بالعراق ويذكر له أيضاً » وهؤلاء رسله إلى خراسان وإليك (٢) . فكان ميسرة إذن قد أقام حلقة من الدعاة المكتومين في خراسان نفسها . وانضم ميسرة إلى العباسيين ، بعد أن سم سيده ، بل حاول أيضاً أن يضم الجناحية (٣) ، وقد كان قد انضم إليها في الكوفة إلى العباسية . لقد كان ميسرة من أكبر رجال الحركة الشيعة الأبي الهاشمية ، بل كان مؤسس الراوندية الحقيقي . وقد انتشر دعواته في الكوفة ، وفي بطون الأزدي ، كما انتشرت في خراسان .

ونحن نعلم أنه في عام ١٠٠ هـ - واتباعاً لوصية أبي هاشم أرسل محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٩٩ ، ٥٠٠

(٢) النشار : نشأة الفكر ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٥ .

ميسرة مولى الأزدي إلى العراق » ومحمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار إلى خراسان ، فلقوا من لقوا بها وانصرفوا وقد غرسو غرساً^(١) وهنا تقابلنا لأول مرة شخصية حيان العطار الكوفي الخراساني ، وإضافته إلى العطار ، يرجح نسبة غير العربي ، فمن الأولى أن يقال إذن إنه كان - كميسرة - من موالى الأزدي - على أية حال - إننا نكون قد عثرنا على أول ذكر للأصل التاريخي « حيان العطار » الأزدي أو مولى الأزدي الكوفي الخراساني ، أو بمعنى أدق نكون قد عثرنا على والد جابر ابن حيان . وكانت رحلة هؤلاء في عهد عمر بن عبد العزيز . ثم ما نلبث أن نجد ذكراً لرسل أبي رباح ميسرة داعية بن هاشم في زى التجار ، ودعاهم سعيد بن عبد العزيز والى يزيد بن عبد الملك على خراسان عام ١٠٢ ، حين شك في أمرهم وسألهم عن حالهم « فقالوا نحن تجار ، فحلى سبيلهم ، فخرجوا من خراسان »^(٢) ويعنى هذا أن حيان العطار قد تردد مرة ثانية على خراسان .

وفي عام ١١١ ظهر سليمان بن كثير الخزاعي وجماعة معه بخراسان يدعون إلى بنى هاشم ، وظهرت دعوتهم وكثر من يجيبهم . ثم قدم داعية بنى العباس المشهور بكبير بن هاشم ، وكان ظهوره نقطة تحول في الدعوة . انتشرت كالشيم ، وأجابه خلق كثير ، إلى خلع بن أمية وبيعة بنى هاشم . ثم حين حضرته الوفاة ، استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال . . . انتشرت الدعوة انتشاراً كبيراً في هذه السنة ، وتولى ولاية خراسان أسد بن عبد الله القسري ، فبلغه خبرهم ، فأخذ جماعة منهم فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم^(٣) . فهل كان حيان العطار من جملة من قتلوا . . . لا يظهر حيان العطار في ذكر دعاة العباسيين بعد ولكننا نظفر بنص يورده كل من الطبرى وابن كثير وهو أن حيان العطار هو خال إبراهيم بن سلمة^(٤) . « وكان إبراهيم بن سلمة من كبار دعاة العباسيين ورجاهم . وقد عرض عليه إبراهيم الإمام العباسي أن يكون أمير الشيعة في خراسان ، فأبى^(٥) . ثم يظهر بن سلمة في الكوفة حين وصول أبي العباس السفاح إليها . وكان من كبار رجال الدولة . ويعبر عنه ابن كثير بأنه هو رجل يخدم بنى العباس^(٦) .

نتهى من هذا كله أن جابر بن حيان ولد في بيئة عباسية وأنه كان يعد من خاصة جعفر البرمكي ، والبرامكة . وإننا نجد في قائمه كتبه - مجموعة مهداة إلى البرامكة ، كتاب إلى علي بن إسحق البرمكي ،

(١) النشار : نشأة الفكر ج ٢ ص ٢٤٥ ، واليعقوبى تاريخ ج ٣ ص ٥٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٥٦ .

(٣) ابن كثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٣٦ ، ١٤٤ .

(٤) الطبرى : تاريخ الملوك والأمم ج ٨ ص ١٣٥ ، وابن كثير الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٥٣ .

(٥) ابن كثير : الكامل ج ٥ ص ٣٨٤ .

(٦) نفس المصدر ج ٥ ص ٤١٠ ، ٤١١ .

وكتاب تليين الحجارة إلى منصور بن أحمد البرمكي ، وكتاب الصناعة إلى جعفر بن يحيى البرمكي بل يذكر ابن النديم بين أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة « يحيى بن خالد بن برمك » ص ٤٩٧ وهنا يحصل إشكال : كيف يكون تلميذاً لجعفر الصادق ، وأن يذكر في كتبه أنه تلقى علمه عن جعفر الصادق ، بينما لا تذكره كتب الشيعة الإمامية أو الاثني عشرية . وفي الحقيقة أنه لم يكن من الشيعة الإمامية الفاطمية . وأما ما في كتبه من إشارات إلى جعفر الصادق ، فإنما هي زيادات وإضافات من الإسماعيلية فيما بعد . ومن المؤكد أن رسائل جابر بن حيان ^(١) التي نشرها كراوس ليست لجابر بن حيان قطعاً . إن فيها منهجاً تجريبياً لم يعرفه عصر جابر بن حيان ، وإنما تكون شيئاً فشيئاً لدى علماء الفقه ، ثم طبق في العلوم التجريبية فيما بعد أو بمعنى أدق إن هذا المنهج لم يتضح إلا لدى الأشاعرة ، وقد ظهر الأشاعرة بعد جابر بن حيان بزمن طويل . وإني أميل إلى الرأي بأن جابر بن حيان لم يؤلف سوى « كتاب الرحمة » ، وبعض كتب في العزائم والتبريجات ، ثم بعض كتب في الزهد والمواعظ ^(٢) .

وينبغي أن نلاحظ صلوات أصحاب الكيمياء والصنعة بأصحاب الزهد ، والتصوف . وقد ذكرت من قبل رأي ابن خلدون ، ولقد سبق ابن خلدون في هذا صاحب الفهرست وهو يؤرخ للمعزمين والمشعبدين وأصحاب التبريجات والحليل والطلسمات وتذكر « أما المعزومون ممن ينتحل الشرائع فرغموا أن ذلك يكون بطاعة الله - جل اسمه ، والابتهاال إليه ، والإقسام على الأرواح والشياطين به ، وترك الشهوات ولزوم العبادات ، وأن الجن والشياطين يطيعونهم ، أما طاعة الله جل اسمه ، لأجل الإقسام به - وإما مخافة منه تبارك وتعالى ، ولأن في خاصة أسمائه ، تقدست ، وذكره جل وعلا - قعهم وإذلالهم » ^(٣) فلا بد للمعزم - وهو ساحر في الحقيقة - من العبادة والابتهاال وترك الشهوات ، حتى يستخدم أسماء الله ، ومن هنا ظهرت فكرة الاسم الأعظم في التصوف . ^(٤)

ويذكر ابن النديم أنه كان لجابر بن حيان تلاميذ منهم الخرقى الذي ينسب إليه سكة الخرقى بالمدينة ، وابن عياض المصرى ، والأخميمى . ونلاحظ أن الأخميمى هذا هو عثمان بن سويد أبو جرى الأخميمى - من أخميم المصرية ، وكان مقدماً في صناعة الكيمياء - وذكر له بعض الكتب ، ومن بينها كتاب صرف التوهم عن ذى النون المصرى ، وقد كان ذا النون المصرى والصوفى المشهور كيميائياً أيضاً وساحراً . كما كان الأخميمى على صلوات بابن وحشية وابن وحشية هو أبو بكر أحمد بن

(١) ابن النديم الفهرست : ص ٥٠١ .

(٢) ابن النديم : الفهرست : ص ٥٠١ ، ٥٠٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٢٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٠٠ .

على بن المختار بن عبد الكريم بن جرثوم^(١) وكان نبطياً يتكلم لغة الكسدانيا أى الكلدانية وأطلق عليه اسم الصوفى وقد اشتهر ابن وحشية بالسحر وبالصنعة . ثم كان ممن صحت له الصنعة السائح العلوى - وهو أبو بكر على بن محمد الخراسانى العلوى الصوفى . . . وكان ينتقل فى البلاد ، خوفاً من السلطان^(٢) .

ثم تأتى الصوفية الكبار . . . فنجد ذا النون المصرى القفطى . . . « وكان متصوفاً ، وله أثر فى الصنعة^(٣) » ويذكر القفطى « ذو النون بن إبراهيم الأحميمى المصرى من طبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والإشراف على كثير من علوم الفلسفة^(٤) » ثم الحلج . . . وكان رجلاً محتالاً مشعبذاً يتعاطى مذاهب الصوفية ، ويدعى كل علم ، وكان صفرأً من ذلك وكان يعرف شيئاً من صناعة الكيمياء^(٥) . ثم نرى صوفياً شيعياً وغنوصياً من الطراز الأول ، وكان معاصراً أيضاً للرازى هو أبو جعفر محمد بن الشلمغانى ، والمعروف بابن أبى العزاق^(٦) « كان له قدم فى صناعة الكيمياء^(٦) » .

نستطيع أن نصل من هذا كله أن كلمة الصوفى أطلقت أول الأمر على السحرة ورجال الصنعة ، واستمرت تلحق بهم . وكان الصوفى فى أول الأمر هو المعزم والطلسمى وكان صاحب النيرنجيات وصاحب الصنعة ثم أطلقت على جميع رواد الحياة الروحية فى الإسلام ، ولكن التعزيم والنيرنجيات والطلاسم والصنعة أصبحت « سمة » للصوفية الغلاة ، أو للصوفية الفلاسفة .

ونلاحظ أن المؤرخين يوردون أسماء الفلاسفة القدامى الذين صحت لهم الصنعة ، والفاحص لهذه الأسماء أنهم هم أنبياء الصابئة وحكاؤهم : هرمس وأغاذيمون . . . إلخ . . . وهؤلاء دخلوا فى كتب الصوفية الفلاسفة كأقطاب التصوف الأقدمين . وكذلك اعتبر هرمس أيضاً منشئ النيرنجيات والطلسمات والتعاويد والعزائم . . . وكان كما قلت لهذا أثره فى التصوف الفلسفى ، ثم أثر فى التصوف الإشرافى عند السهروردى ومدرسته . وقد تعاطى السهروردى المقتول أيضاً ومدرسته - علوم السحر والطلسمات والصنعة .

(١) ابن النديم : ص ٤٣٣ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٥٠٦ .

(٣) نفس المصدر ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

(٤) القفطى أخبار الحكاه : ص ١٢٧ .

(٥) نفس المصدر : ص ٢٦٩ .

(٦) القفطى : أخبار الحكاه ص ٥٠٧ .

٢- الطائفة الثانية : الزنادقة :

كما ظهرت كلمة الصوفي في الكوفة ، لدى شيعي عباسي ، نراها تظهر أيضاً لدى فرقة نصف شيعية صوفية . ويذكر أن كلمة صوفية ظهرت في آثار المحاسبي والجاحظ اسماً لها ، وأن آخر شيوخ هذه الفرقة ذات الأصل الكوفي هو عبدك الصوفي البغدادي^(١) .
وقد عاش عبدك - كما سنرى في بحثنا لمدرسة بغداد - في العاصمة العباسية (وتوفي حوالي عام ٢١٠) وكان أول صوفي فيها فهو إذن من رجال مدرسة بغداد ، وإن كانت صوفيته - كما سنرى بعد - تمثل خصائص مدرسة الكوفة .

ويرى ماسينيون : أن عبدك هو أول من أطلق عليه اسم الصوفي ، وأنه كان يطلق في ذلك الحين على بعض زهاد الكوفة من الشيعة وعلى مجموعة من الثائرين في الإسكندرية^(٢) . بزعامة رجل أندلسي « يقال له أبو عبد الله الصوفي ، يسفك الدماء ويقتل المسلمين »^(٣) . لاشك إذن أن الكلمة كانت معروفة ومنتشرة . عرفت في الكوفة لدى أوساط غلاة الشيعة ، كما عرفت لدى الأندلسيين أيضاً . ولكن من المرجح كثيراً أنها ظهرت كمصطلح في الكوفة والأمر هنا مواز تماماً لزنادقة الزهاد في البصرة ، ولم يكن هؤلاء زنادقة بالمعنى المعروف كما بينا في بحثنا لمدرسة البصرة . وهنا نجد زنادقة الصوفية في الكوفة ، وسنرى أيضاً أنهم لم يكونوا زنادقة .

٣- الطائفة الثالثة : الصوفية السنية :

وظهر الاسم « الصوفي » منسوباً إلى أبي هاشم عثمان بن شريك ، وقد اختلف في أمر أبي هاشم هذا ، هل هو كوفي ، أم شامي ، أم بغدادي ، وما يرجح أصله الكوفي ، هو أن أهم أقواله ، نقلها إلينا سفيان الثوري - الكوفي - وهو قول « لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرباء » ، ولكن تكاد تجمع المصادر على أنه كان أمورياً . وعاش بالشام ، وبالرملة ، ثم انتقل في العهد العباسي إلى بغداد . وإني أفضل أيضاً أن أعرض له في مدرسة بغداد .

ولاشك أن الكوفة كانت مصدرة للتصوف إلى العاصمة الجديدة ، ومنبعاً للعديد الكبير من رجال الروح الذين انتقلوا منها إلى بغداد . وقد رأينا أن عبدك ، وإن كان من قدماء مشايخ بغداد ، كما قيل

(١) الدكتور الشيبني : الصلة ج ١ ص ٢٩٢ .

(٢) الشيبني : الصلة ج ١ ص ٢٨٢ .

(٣) العقروبي : تاريخ ج ٣ ص ١٨١ .

إلا أنه صدر عن فرقة كوفية ، كما أن أبا هاشم الكوفي قد نشأ في الكوفة ، كما نعلم أيضاً أن معروفاً الكرخي - من صوفية بغداد الكبار - كما سنرى - أتى إلى الكوفة ، فاستمع لوعظ ابن السماك ، القاضي الكوفي المشهور . . . وكان استماعه إليه ، نقطة التحول في حياة معروف الروحية .

وعن الكوفة صدرت نماذج الحياة الروحية المختلفة ، النموذج الشيعي العالي والنموذج الشيعي المعتدل - إمامياً كان أوزيدياً ، والنموذج السني الخالص .

وفي الكوفة في عهدها الأول اضطربت الآراء المتباينة وانقدحت فيها . الأفكار الواردة ، وكان يجوارها الأديرة ، وسكن فيها النصارى واليهود ، وأحاط بها الصابئة كما عرف أهلها المندائية والدبصانية والمناوية والمزدكية والزرادشتية .

وكان بالقرب من الكوفة - المدائن - موطن الشيعة الغالية ، ومركزاً من مراكز الغنوص .
أطل كل هذا على الكوفة ، ولكن بالرغم من هذا كله كانت الكوفة أصيلة حقاً في فكرها وفي تصوفها وفي فقهها . . . ولكن بدأت نضارتها تذهب شيئاً فشيئاً ، وكانت بغداد عروساً مجلوة تطل على الزمان ، وكان على رجال الفكر أن ينتقلوا إليها ، وعلى رجال الروح أن يظعنوا نحوها . وأن يتركوا الكوفة فأخذت تقفر شيئاً فشيئاً ، وما هي بغداد تعيش حتى الآن ، وأصبحت الكوفة مهجورة ، مقبرة للشيعة الاثني عشرية ، وقرية من قرى النجف ، حيث يرقد الإمام الكبير ، صاحب الروح لدى المسلمين سنة وشيعة ، وقة السلاسل الصوفية ، على اختلاف نزعاتها ومشاربها وعقائدها : على بن أبي طالب .